الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٣)

موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية

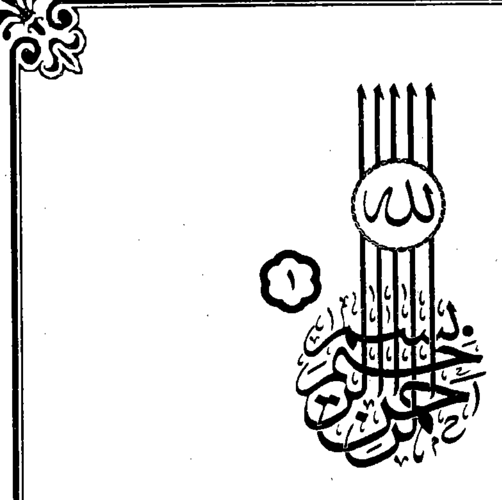

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مَوْقِفُ اليَهُودِ

مِنَ

الرِّسَالَةِ وَالرَّسُولِ ﷺ

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

منذ وجد الإنسان وهو مشوق إلى تعرف ما فى الحياة من سنن وخصائص .. وكلما أمعن فى المعرفة الحقة ظهر ضعفه. وتضاءل غروره، وآمن بربه، وعرف أن للَّه عز وجل عونا على أوامره، وإغناء عن نواهيه ـ كما يقول الماوردى [1] ـ وأن الرسل عليهم صلوات اللَّه وتسليماته معانون على تأسيس النبوة، بما تقدمه دلائلها وبشائرها، وتبديه من أعلامها وشعائرها، ليكون السابق مبشرا ونذيرا، واللاحق مصدقا وظهيرا، ومن ثم تدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم استمرار موكب الحق..

وقد تقدمت البشائر بنبوة خاتم النبيين ﷺ، مما هو حجة على أمم من سلف من الأنبياء، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه اللَّه على غيبه، ليكون عونا للرسول، وحثا على القبول ..

وبنو إسرائيل جاءهم الخبر اليقين برسالة محمد ﷺ منذ أمد بعيد..وتوجد الدلائل والبشارات الكثيرة إلى الآن، وهى فى غاية القوة، مع وقوع التحريفات فى كتبهم!

ومن ثم فقد كان المتوقع أن يؤمنوا باللَّه وخاتم رسله، ولا يفرقوا بين أحد من رسل اللَّه، وأن يدركوا عظمة الرسالة والرسول ﷺ فى دعوتهم إلى الإيمان، من حيث الأسلوب و الموضوع والإشادة والمودة، والترغيب والموادعة..

ولكن اليهود ـ رغم إسلام بعضهم ممن عرفوا الحق فاهتدوا به ـ هم اليهود فى كل زمان ومكان وجيل وقبيل.. يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم! لا، بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم به أنبياؤهم،وقتلوا من قتلوا من هؤلاء الأنبياء، وقالوا فى حق اللَّه ما قالوا! حيث كانت لهم مطامح عنصرية شيطانية !

ومن ثم حاربوا الرسالة والرسول ﷺ بشتى أنواع الحروب.. ولم تضع الحرب أوزارها حتى اليوم !

إنهم صمتوا أولا صمت المستريب، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود والكنود،

---

(١) أعلام النبوة : ١٢٩ .

والعداء السافر الذى يعجز الخيال الشاخص عن تصوره بحال !

ومن ثم كانت الحاجة إلى معرفة موقفهم من الرسالة والرسول ﷺ .. رجاء أن يكون فى ذلك ذكرى تبعث دوافع الأمل والعمل نحو الإعداد لمواجهة هذا الباطل بما يجب أن يكون..

وقدا قتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتى:

الفصل الأول : الأدلة والبشارات.

الفصل الثانى : الترغيب والترهيب.

الفصل الثالث : صور ومعالم.

والله أسأل : التوفيق والسداد .

والعون والرشاد ، إنه سميع مجيب !!

الكويت فى : ٢٧ شعبان ١٤١٣ هـ
١ مارس ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

الأدلة والبشارات

تمهيد ـ ميثاق النبيين ـ إقامة الأدلة ـ بشارات التوراة ـ أقوال العلماء ـ البشارة الأولى ـ عشرة أوجه ـ البشارة الثانية ـ البشارة الثالثة ـ البشارة الرابعة ـ البشارة الخامسة ـ رواية البخارى وغيره لصفات النبى محمد ﷺ فى التوراة ـ أشهر أسمائه ﷺ ـ طبيعة أهل الكتاب .

تمهيد :

نبصر الوسائل المتنوعة فى الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل، والإقناع بصدق رسالة خاتم النبيين ﷺ، والتنبيه إلى حقيقة دعوته، ونحن نذكر طرفا من الأدلة التى تحمل الذين يفتحون قلوبهم للحق، ويخافون مقام ربهم، وينهون أنفسهم عن الهوى .. على المبادرة إلى الدخول فى الدين القيم ..

ميثاق النبيين :

ومن بين الوسائل التى نبصرها فى القرآن الكريم حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات، على عهد من الله وميثاق، ينبنى عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات، وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (١).

لقد أخذ الله عز وجل موثقا رهيبا جليلا على كل رسول (٢) ، أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول مصدق لما معه، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه، وجعل هذا عهدا بينه وبين كل رسول.

والتعبير القرآنى يطوى الأزمنة المتتابعة بين الرسل، ويجمعهم كلهم فى مشهد .. ويأتى هذا الخطاب :

﴿ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ﴾

وهم يجيبون :

﴿ قالوا أقررنا ﴾

وتأتى الشهادة على هذا الميثاق :

﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾

---

(١) آل عمران : ٨١ ـ ٨٣ .

(٢) فى ظلال القرآن : ١: ٤٢٠ بتصرف .

هذا المشهد الهائل الجليل، يرسمه التعبير القرآنى فيعتز له الجنان فى الإنسان وهو يتمثل المشهد.. ومن ثم يبدو هذا الموكب الكريم متصلا متساندا مستسلما للتوجيه العلوى، ممثلا للحقيقة الواحدة التى شاء الحق تبارك وتعالى أن تقوم عليها البشرية، ولاتنحرف، ولا تتعدد، ولا تتعارض، ولا تتصادم..إنما يصطفى لها المختار من عباد اللّه، ثم يسلمها إلى المختار بعده، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به.. فما للنبى فى نفسه من شىء، وما له فى هذه المهمة من أرب شخصى،ولا مجد ذاتى، إنما هو عبد مصطفى، ومبلّغ مختار..والحق تبارك وتعالى هو الذى ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء..

ويخلص دين اللّه ـ بهذا العهد وبهذا التصور ـ من العصبية الذاتية..عصبية الرسول لشخصه، وعصبيته لقومه..وعصبية أتباعه لنحلتهم..وعصبيتهم لأنفسهم..وعصبيتهم لقوميتهم.. ويخلص الأمر كله للّه فى هذا الدين الواحد، الذى تتابع به وتوالى كل ذلك الموكب السنى الكريم .

وفى ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بخاتم النبيين محمد ﷺ، ومناصرته وتأييده، تمسكا بديانتهم كما يزعمون! لابحقيقتها، لأن حقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصبا لأنفسهم فى صورة التعصب لها! مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الرسالات قد قطعوا على أنفسهم عهدا ثقيلا غليظا مع ربهم فى مشهد مرهوب جليل..

فى ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون من أهل الكتاب فسقة عن تعليم أنبيائهم..فسقة كذلك عن نظام الكون كله، المستسلم لبارئه، الخاضع لناموسه:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

إنه لا يتولى عن اتباع هذا الرسول إلا فاسق.. ولا يتولى عن دين اللّه إلا شاذ.. شاذ فى هذا الوجود الكبير.. ناشز فى وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب..

إن دين اللّه واحد، بعث به الرسل جميعا، وتعاقدت عليه الرسالات جميعاً وإن عهد اللّه واحد، أخذه على كل رسول.. والإيمان بهذا الدين واتباع رسوله، ونصرة منهجه على كل منهج، هو الوفاء بهذا العهد.. فمن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين اللّه كله،

وقد خان عهد اللّه كله. كما فعل يهود!

والإسلام ـ الذى يتحقق فى إقامه منهج اللّه فى الأرض واتباعه والخلوص له ـ هو ناموس هذا الوجود، وهو دين كل حى فى هذا الوجود..

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام..صورة كونية تأخذ بالمشاعر، وترجف لها الضمائر.. صورة الناموس القاهر الحاكم، الذى يرد الأشياء والأحياء إلى سنن واحد، ومصير واحد:

﴿ وإليه يرجعون ﴾

فلا مناص لهم فى نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبر الجليل.. ولا مناص للإنسان حين يبتغى سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله، من الرجوع إلى منهج اللّه فى ذات نفسه، وفى نظام حياته، وفى منهج مجتمعه، ليتناسق مع النظام الكونى كله. فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه، لا يتناسق مع ذلك النظام الكونى من صنع بارئه، فى حين أنه مضطر أن يعيش فى إطار هذا الكون، وأن يتعامل بجملته مع النظام الكونى.. والتناسق بين نظامه هو فى تصوره وشعوره، وفى واقعه وارتباطاته، وفى عمله ونشاطه، مع النظام الكونى، هو وحده الذى يكفل له التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلا من التصادم معها.. وهو حين يصطدم بها يتمزق وينسحق، أو لا يؤدى ـ على كل حال ـ وظيفة الخلافه فى الأرض كما وهبها اللّه له.. وحين يتناسق ويتفاهم مع نواميس الكون التى تحكمه وتحكم سائر الأحياء فيه، يملك معرفة أسرارها وتسخيرها، ويملك الانتفاع بها على وجه يحقق له السعادة والراحة والطمأنينة، ويعفيه من الخوف والقلق والتناحر.. الانتفاع بها، لا ليحترق بنار الكون ، ولكن لينتفع بها ويستضىء!

والفطرة البشريه فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون، مسلمة لربها إسلام كل شىء وكل حى. فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب، إنما يصطدم أولا بفطرته التى بين جنبيه، فيشقى ويتمزق، ويحتار ويقلق، ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم فى عذاب من هذا الجانب على الرغم من جميع الانتصارات العلمية وجميع التسهيلات الحضاريه المادية! وكل ذلك من صنع يهود !

إن البشريه اليوم تعانى من الخواء المرير.. خواء الروح من الحقيقة التى لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها.. حقيقة الإيمان. وخواء حياتها من المنهج الإلهى.. هذا المنهج الذى ينسق بين حركتها وحركة الكون الذى تعيش فيه..

إنها تعانى من الهجير المحرق الذى تعيش فيه بعيدا بعيدا عن ذلك الظل الوارف الندى..ومن الفساد المقلق الذى تتمرغ فيه بعيدا بعيدا عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق! وكل ذلك من صنع يهود!

ومن ثم تجد الشقاء والحيرة والاضطراب، وتحس الخواء والجوع والحرمان، وتهرب من واقعها هذا بالمسكرات، على اختلاف أنواعها، وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء، والشذوذ فى كل شيء ! وكل ذلك من صنع يهود!

وذلك على الرغم من الرخاء المادى ، والإنتاج الوفير، والحياة الميسورة، والفراغ الكثير.. لا، بل إن تلك الآلام تتزايد كلما تزايد الرخاء المادى، والإنتاج الحضارى، واليسر فى وسائل الحياة ومرافقها.. إن هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف، يطاردها فتهرب منه، ولكنها تنتهي كذلك إلى الخواء المرير! وكل ذلك من صنع يهود!

وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية فى الأرض حتى يكون الانطباع الأول فى حسه إن هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم! هاربون من ذوات أنفسهم! وسرعان ما ينكشف الرخاء المادى والحسى الذى يصل إلى حد التمرغ فى الوحل والطين ، عن الأمراض العصبية والنفسية،والشذوذ والقلق، والمرض والجنون، والمسكرات والمخدرات والجريمة، وفراغ الحياة من كل تصور كريم! وكل ذلك من صنع يهود!

إنهم لا يجدون أنفسهم ؛ لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية ..

إنهم لا يجدون سعادتهم ؛ لأنهم لا يجدون المنهج الإلهى الذى ينسق بين حركتهم وحركة الكون، وبين نظامهم وناموس الوجود ..

إنهم لا يجدون طمأنينتهم؛ لأنهم لا يعرفون اللّه الذى إليه يرجعون! وكل ذلك من صنع يهود!

إقامة الأدلة :

ومن بين الوسائل التى نبصرها لدعوة بنى إسرائيل إلى الإيمان باللّه ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .. إقامة الأدلة على صدق خاتم النبيين ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ

﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

وهنا نبصر نبأ الملة الأخيرة التي سيكتب لها اللّه رحمته التي وسعت كل شيء.. بهذا التعبير الذي يجعل رحمة اللّه أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خلقه، والذي لا يدرك البشر مداه.. فيا لها من رحمة لا يدرك مداها إلا اللّه (٢) !

وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي منذ أمد بعيد، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى عليهما السلام..

جاءهم الخبر اليقين ببعثته، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته، فهو « النبي الأمي » وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وهو يضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي كانت عليهم .. فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به. .. وأتباع هذا النبي يتقون ربهم ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات اللّه ..

وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي ، ويعظمونه، ويوقرونه، وينصرونه ، ويؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه « أولئك هم المفلحون » .

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل ـ على يد نبيهم موسى عليه السلام ـ كشف الحق جل شأنه عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مستقر رحمته.. فلم يبق عذر لهؤلاء ومن على شاكلتهم بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين ..

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام ـ هو والسبعون المختارون من قومه لميقات ربه ـ يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي وللدين الذي جاء به .. وفيه التخفيف عنهم والتيسير إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح! للمؤمنين!

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣ : ١٣٧٨ بتصرف .

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التى لم يألوا فيها جهدا ..فقد سجل التاريخ أن بنى إسرائيل كانوا هم ألأم خلق وقف لهذا النبى وللدين الذى جاء به.. اليهود أولا، ومن على شاكلتهم أخيرا.. وأن الحرب التى شنوها على هـذا النبى ورسالته والمؤمنين كانت حربا خبيثة ماكرة لئيمة قاسية، وأنهم أصروا عليها ودأبوا ومازالوا يصرون ويدأبون !

والذى يراجع ـ فقط ـ ماسجله القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين... يطلع على المدى الواسع المتطاول الذى أداروا فيه المعركة مع الرسالة والرسول فى عناد لئيم !

والذى يراجع التاريخ بعد ذلك ..منذ اليوم الأول الذى استعلن فيه هذا الدين، وقامت له دوله فى المدينة .. يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود!

ولقد استخدمت الصهيونية ومن على شاكلتها فى العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية كلها !

وهى فى هذه الفترة بالذات تعالج إزاله هذا الدين بجملته، وتحسب أنها تدخل معه فى المعركة الأخيرة الفاصلة.. لذلك تستخدم جميع الأساليب التى جربتها فى القرون الماضية كلها.. بالإضافة إلى ما استحدثته منها.. جملة واحدة!

ذلك فى الوقت الذى يقوم ناس ممن ينتسبون إلى الإسلام، يدعون فى سذاجة إلى التعامل مع أهل الإسلام وأهل الكتاب للوقوف فى وجه تيار المادية والإلحاد!

ومن ثم أبصرنا الدعوة إلى مؤتمرات الأديان ـ كما سبق ـ ومجمع المسجد ودور العبادة عند أهل الكتاب!

أهل الكتاب الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام فى كل مكان، ويشنون عليهم حربا تتسم بكل بشاعة الحروب التى سجلهـا التاريخ وسجلتها محاكـم التفتيش فى الأندلس! سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة فى المستعمرات فى آسيا وأفريقية أو عن طريق الأوضاع التى يقيمونها فى البلاد وما أكثرها ، لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية! تنكر الغيبية، وتطور الأخلاق لتصبح حيوانية كالبهائم التى ينزو بعضها على بعض فى حرية ـ كما يزعمون ـ وتقيم مؤتمرات المستشرقين للتطور فى كل شىء!

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب ضد هذا الدين القيم ، الذى بشروا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد .. ولكنهم تلقوه هذا التلقى اللئيم الخبيث العنيد!

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد.. يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى خاتم النبيين ﷺ، يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعا، تصديقا لوعد الله :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

إنها الرسالة الأخيرة، فهى الرسالة الشاملة، التى لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل .. ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان ــ مابين عهدى رسولين ــ وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة، تأهيلا لها للرسالة الأخيرة .. وكانت كل رسالة تتضمن ما يناسب تدرج الشريعة.. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة فى أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد فى فروعها، وجاءت للبشر جميعا، فى كل جيل وفى كل قبيل، فى كل زمان وفى كل مكان، وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التى يلتقى عندها الناس جميعا.. ومن ثم حملها النبى الأمى الذى لم يدخل على فطرته الصافية ــ كما خرجت من يد الحق ــ إلا تعليم الله.. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض، ومن أفكار الناس ! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعا :

﴿ قل : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾

وهذه الآية التى يؤمر فيها رسول الله ﷺ أن يواجه برسالته الناس جميعا، هى آية مكية فى سورة مكية.. وهى تجبه المزورين من أهل الكتاب، الذين يزعمون أن خاتم النبيين ﷺ لم يكن يفكر ــ وهو فى مكة ــ أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر فى أن يتجاوز بها قريش، ثم يتجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها .. كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذى ساقته إليه الظروف! وإن هى إلا فرية من ذيول الحرب التى شنوها قديما على هذا الدين وأهله، وما يزالون ماضين فيها!

وليست البلية فى أن يرصد أهل الكتاب كيدهم لهذا الدين وأهله.. وأن يكون

المستشرقون الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله.. إنما البلية الكبرى أن كثيرا من السذج الأغرار من أبناء جلدتنا الذين يتكلمون بألسنتنا يتخذون من هؤلاء المزورين على أنبيائهم، المحاربين لعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم فى هذا الدين نفسه ، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم مثقفون!

ونعود إلى السياق القرآنى بعد تكليف الرسول ﷺ أن يعلن رسالته للناس جميعا، فنجد بقية التكليف هى تعريف الناس بربهم الحق جل شأنه :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾

إنه ﷺ رسول للناس جميعا من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله.. وهم من هذا الوجود.. والذى يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد .. والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيى ويميت ..

والذى يملك الوجود كله، والذى له الألوهية على الخلائق وحده، والذى يملك الحياة والموت للناس جميعا .. هو الذى يستحق أن يدين الناس بدينه، الذى يبلغه إليهم رسوله.. فهو تعريف للناس بربهم، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له، وطاعتهم لرسوله:

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

وهذا النداء الأخير فى هذا التعقيب يتضمن لفتات دقيقة ينبغى أن نقف أمامها لحظات :

إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله.. وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فى صورة أخرى من صور هذا المضمون الذى لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام.. ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه فى الآية التعريف بصفاته تعالى .

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾

فالأمر بالإيمان هو أمر بالإيمان بالله الذى هذه صفاته الحقة.. كما سبقه التعريف برسالة النبى ﷺ إلى الناس جميعا :

﴿ قل : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾

ثم يتضمن ثانيه أن النبى الأمى صلوات الله وسلامه عليه يؤمن باللّه وكلماته.. ومع أن هذه بدهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها قيمتها.. فالدعوة لابد أن يسبقها إيمان الداعى بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه فى نفسه ويقينه منه.. لذلك يجئ وصف النبى المرسل إلى الناس جميعا بأنه :

﴿ الذى يؤمن باللّه وكلماته ﴾

وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه.

ثم يتضمن أخيرا لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذى يدعوهم إليه.. هو وأتباعه فيما يأمر به ويدعو إليه ويحث عليه ، واتباعه لذلك فيما يبينه، وهو ما يقرره قول الحق سبحانه:

﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾

فليس هناك رجاء فى أن يهتدى الناس بما يدعوهم إليه رسول اللّه ﷺ إلا باتباعه فيه.ولا يكفى أن يؤمنوا به فى قلوبهم ..

إن هذا الدين يعلن عن حقيقته فى كل مناسبة.. إنه ليس مجرد عقيدة تستكن فى الضمير .. كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس.. إنما هو الاتباع لرسول اللّه ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وفيما يبنيه ويسنه.. والرسول ﷺ لم يأمر الناس بالإيمان باللّه ورسوله فحسب.. ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب.. ولكنه أبلغهم شريعة اللّه فى قوله وفعله.. ولا رجاء فى أن يهتدى الناس إلا أذا اتبعوه فى هذا.. فهذا هو دين اللّه.. وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التى تشير إليها هذه اللفتة :

﴿واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾

بعد الإيمان باللّه ورسوله.. ولوكان الأمر فى هذا الدين أمر اعتقاد وكفى، لكان فى قوله ﴿ فآمنوا باللّه ورسوله ﴾ الكفاية !

بشارات التوراة :

وحتى لا يقول قائل: إن أهل الكتاب لا يؤمنون إلا بما ورد فى كتبهم هم فإننا نسوق بشارات التوراة، حتى لا تبقى حجة لهؤلاء ومن على شاكلتهم ..

أقوال العلماء :

وأرى أن أذكر فى المقدمة ما قاله العلماء فى ذلك، فقد قال الماوردى [1] :

إن لله تعالى عونا على أوامره، وإغناء عن نواهيه، فكان أنبياء الله تعالى معانين على تأسيس النبوة بما تقدمه من بشائرها، وتبديه من أعلامها وشعائرها، ليكون السابق مبشرا ونذيرا، واللاحق مصدقا وظهيرا، فتدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم بهم استمرار الحق، وقد تقدمت بشائر من سلف الأنبياء بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على أممهم، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عونا للرسول، وحثا على القبول .

ثم سرد الماوردى البشائر من نصوص كتبهم.

وجاء فى «منية الأذكياء فى قصص الأنبياء» مانصه [2] :

إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره، وسمته. غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه ـ يعنى من نسخهم الأخيرة ـ إلا أن ذلك لم يجدهم نفعا، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة، وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان فى اسم، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف. لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات، ليبعد صدقها على النبى عليه الصلاة والسلام. فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره، ولاماقصد به، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم، لانتشار النسخ بالطبع وتيسر المقابلة بينها.

وجاء فى «إظهار الحق» مانصه [3] :

إن الإخبارات الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضا، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب. ومن عرف أولا طريق إخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر، على ما عرفت فى الأمر الثانى ـ يعنى فى كلامه ـ ثم نظر ثانيا بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات، وقابلها بالإخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى عليه السلام، جزم بأن

---

(١) أعلام النبوة: ١٢٩ ، وانظر : تفسير القاسمى : ٧ : ٢٨٧٣ .

(٢) تفسير القاسمى : ٧ : ٢٨٧٣ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق .

الإخبارات المحمدية فى غاية القوة.

وها نحن ننقل هذه البشارات التى أوردها صاحب المنار وعلق عليها [1] :

البشـارة الأولى :

فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء «التثنية» هكذا (١٧ فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخواتهم، وأجعل كلامى فى فمه. ويكلمهم بكل شيء آمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ فأما النبى الذى يجترى بالكبرياء ويتكلم فى اسمى مالم آمره بأنه يقول أم باسم آلهة غيرى فليقتل ٢١ فإن أجبت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب ولم يحدث فالرب لم يكن تكلم به، بل ذلك النبى صورة فى تعظم نفسه، ولذلك لا تخشاه).

عشرة أوجــه :

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع، كما يزعم الآن أحبار اليهود، ولا بشارة بعيسى عليه السلام، كما زعم علماء بروتستانت، بل هى بشارة بمحمد ﷺ لعشرة أوجه :

الوجه الأول: قد عرفت فى الأمر الثالث ــ أى الذى سبق ذكره فى تفسير المنار[2] ــ أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به فى هذا الباب، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى ..

الوجه الثانى : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ مثلك، ويوشع وعيسى لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام .

أما أولا فلأنهما من بنى إسرائيل، ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى ، كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء «التثنيه» وهى هكذا (١٠ ولم يقم بعد ذلك نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه) إلخ .

وأما ثانيا فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى ؛ لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهى، ويوشع ليس كذلك، بل هو متبع لشريعته.

وكذلك لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأن عيسى عليه

---

(١) تفسير المنار : ٩ : ٢٥١ وما بعدها بتصرف . (٢) المرجع السابق : ٢٣٥ ــ ٢٣٦.

السلام كان إلها وربا على زعم النصارى، وموسى عليه السلام كان عبد إله موسى، وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعونا لشفاعة الخلق، كما صرح به بولس فى الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية، وموسى عليه السلام ماصار ملعونا لشفاعتهم، وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به فى عقائد أهل التثليث، وموسى عليه السلام دخل الجحيم ، وأن عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارة لأمته، وموسى عليه السلام ماصار كفارة لأمته بالصلب، وأن شريعه موسى عليه السلام مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فإنها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم، وأن موسى عليه السلام كان رئيسا مطاعا فى قومه نفاذا لأوامره ونواهيه،وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك.

الوجه الثالث: أنه وقع فى هذه البشارة لفظ «من بين إخوتهم» ولا شك أن الأسباط الاثنى عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده، فلو كان المقصود كون النبى المبشر به منهم لقال منهم لا«من بين إخوتهم » ؛ لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى إسرائيل، كما جاء لفظ الإخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله هاجر فى حق إسماعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين، وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا « وقبله جميع إخوته بنصب المضارب» وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١م هكذا « بحضرة جميع إخوته يسكن » .

وجاء بهذا الاستعمال أيضا فى الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق إسماعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا « منتهى إخوته جميعهم سكن » وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ م هكذا « أقام بحضرة جميع إخوته» والمراد بالإخوة ههنا بنو عيسو وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهيم عليه السلام.

وفى الآية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هكذا «ثم أرسل موسى رسلا من قادس إلى ملك الروم قائلا: هكذا يقول أخوك إسرائيل قد علمت كل البلاء الذى أصابنا ».

وفى الباب الثانى من سفر التثنيه هكذا (٢ وقال لى الرب ٤ ثم أوص الشعب أنكم ستجوزون فى تخوم إخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم ٨ فلما جزنا

إخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير إلخ).

والمراد بإخوة بنى إسرائيل بنو عيسو، ولا شك أن استعمال لفظ إخوة بنى إسرائيل فى بعض منهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى، ولا تترك الحقيقة ولا يصار إلى المجازما لم يمنع من الحمل على المعنى الحقيقى مانع قوى، ويوشع وعيسى كانا من بنى إسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما.

الوجه الرابع : أنه قد وقع فى هذه البشارة لفظ «سوف أقيم » ويوشع كان حاضرا عند موسى عليه السلام داخلا فى بنى إسرائيل نبيا فى ذلك الوقت ـ كما يقولون ـ فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ؟!

الوجه الخامس : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ: «أجعل كلامى فى فمه»، وهو إشارة إلى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب، وإلى أنه يكون أميا حافظا للكلام، وهذا لايصدق على يوشع ، لانتفاء كلا الأمرين فيه.

الوجه السادس : أنه وقع فى هذه البشارة:« ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه» فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبى المبشربه فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء، فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الأخروى الكائن فى جهنم، أو المحن والعقوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب ؛ لأن هذا الانتقام لا يختص بإنكار نبى دون نبى، بل يعم الجميع، فحينئذ يراد بالانتقام : الانتقام التشريعى .

فظهر منه أن هذا النبى يكون مأمورا من جانب اللّه بالانتقام من منكره، فلا يصدق على عيسى عليه السلام ؛ لأن شريعته خالية من أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد.

الوجه السابع : فى الباب الثالث من كتاب الأعمال فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا (١٩ فتوبوا وارجعوا كى تمحى خطاياكم ٢٠ حتى إذا تأتى أزمنة الراحة من قدام وجه الرب، ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذى إياه ينبغى للسماء أن تقبله إلى الزمان الذى يسترد فيه كل شىء تكلم به اللّه على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ أن موسى قال: إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من بين إخوتكم مثلى له تسمعون في كل ما يكلمكم به ١٣ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبى تهلك من الشعب).

وفى الترجمة الفارسية.... (حذفنا النص الفارسى استغناء عنه بما يذكره من مضمونه ، هو قوله:

فهذه العبارات سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبى غير المسيح عليه السلام، وأن المسيح لابد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبى ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين ـ وتأمل فى عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفى لإبطال ادعاء علماء بروتستانت أن هذه البشارة فى حق عيسى عليه السلام.

وهذه الوجوه السبعة التى ذكرتها تصدق فى حق محمد ﷺ أكمل صدق؛ لأنه غير المسيح عليه السلام، ويماثل موسى عليه السلام فى أمور كثيرة:

١ ـ كونه عبد اللّه ورسوله.

٢ ـ كونه ذا والدين.

٣ ـ كونه ذا نكاح وأولاد.

٤ ـ كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية.

٥ ـ كونه مأمورا بالجهاد.

٦ ـ اشتراط الطهارة وقت العبادة فى شريعته.

٧ ـ وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء فى شريعته.

٨ ـ اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها.

٩ ـ حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان فيها.

١٠ ـ كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضيات الجسمانية.

١١ ـ أمره بحد الزنا.

١٢ ـ تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص.

١٣ ـ كونه قادرا على تنفيذها.

١٤ ـ تحريم الربا.

١٥ ـ أمره بإنكار من يدعو إلى غير اللّه.

١٦ ـ أمره بالتوحيد الخالص.

١٧ ـ أمره الأمة بأن يقولوا له: عبدالله ورسوله، لا ابن الله، أو الله ـ والعياذ بالله ـ.

١٨ ـ موته على الفراش.

١٩ ـ كونه مدفونا كموسى.

٢٠ ـ عدم كونه ملعونا لأجل أمته.

وهكذا أمور أخر تظهر إذا تؤمل في شريعتهما، ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ (١).

وكان من إخوة بني إسرائيل، لأنه من بني إسماعيل، وأنزل عليه الكتاب، وكان أميا جعل كلام الله في فمه، وكان ينطق بالوحي، كما قال الله تعالى .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (٢).

وكان مأمورا بالجهاد، وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش، والأكاسرة والقياصرة وغيرهم، وظهر قبل نزول المسيح من السماء، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام إلى ظهوره، ليرد كل شيء إلى أصله، ويمحق الشرك والتثليث وعباده الأوثان.. ثم قال :

الوجه الثامن : أنه صرح في هذه البشارة: بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره يقتل، فلو لم يكن محمد ﷺ نبيا حقا لكان قتل، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضا :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (٣).

وما قتل، بل قال الله في حقه:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٤).

وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى لقي ﷺ الرفيق الأعلى، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب. فلو كانت هذه البشارة في حقه لزم أن يكون نبيا كاذبا كما يزعمه اليهود، والعياذ بالله!

الوجه التاسع : أن الله بين علامة النبي الكاذب، وهي أن إخباره عن الغيب المستقبل

---

(١) المزمل : ١٥. (٢) النجم : ٣ ـ ٤. (٣) الحاقة : ٤٤ ـ ٤٦ . (٤) المائدة : ٦٧ .

لا يخرج صادقا، ومحمد ﷺ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلة كما علمت فى المسلك الأول وظهر صدقه فيها (١) فيكون نبيا صادقا لا كاذبا.

الوجه العاشر : أن علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به فى التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقى فى الكفر...

ثم قال : فتلك عشرة كاملة.

فإن قيل: إن أخوة بنى إسرائيل لا تنحصر فى بنى إسماعيل ؛ لأن بنى عيسو وبنى أبناء قطورا زوجة إبراهيم عليهما السلام من إخوتهم أيضا.

قلت نعم هؤلاء أيضا من إخوة بنى إسرائيل، لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالأمور المذكورة، ولم يكن وعد الله فى حقهم أيضا، بخلاف بنى إسماعيل ، فإنهم كان وعد الله فى حقهم لإبراهيم ولهاجر عليهما السلام، مع أنه لا يصح أن يكون مصداق هذا الخبر بنى عيسو على ماهو مقتضى دعاء إسحاق عليه السلام المصرح به فى الباب السابع والعشرين من سفر التكوين .

ولعلماء بروتستانت اعتراضان نقلهما صاحب الميزان فى كتابه المسمى : بحل الإشكال فى جواب الاستفسار :

الأول: أنه وقع فى الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء « التثنية » هكذا (فإن الرب إلهك يقيم من بينك من بين إخوتك) إلخ .

فلفظ من بينك يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبى يكون من بنى إسرائيل لا من بنى إسماعيل.

والثانى: أن عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة إلى نفسه فقال فى الآية ٤٦ من الباب الخامس من إنجيل يوحنا: أن موسى كتب فى حقى.

---

(١) ظهر صدق بعضها فى زمنه كانتصاره على المشركين، ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وغلب الروم للفرس، وبعضها لأصحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقيصر، وقتل الفئة الباغية لعمار، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر، ومنها قوله ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنه ، ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» مسلم ٣٧ ـ اللباس ١٢٥ (٢١٢٨) وأحمد: ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، ٤٤٠ ، وأيضا (٨٦٥٠) تحقيق أحمد محمد شاكر ، والبيهقى : ٢: ٢٣٤ .

أقول: آية «التثنية» على وفق التراجم الفارسية وتراجم أرد وهكذا (فإن الرب إلهك يقيم من بينك من بين إخوتك نبيا مثلى فاسمع منه) .

والقسيس أيضا نقلها هكذا.

والجواب أن اللفظ المذكور لا ينافى مقصودنا . لأن محمدا عليه السلام لما هاجر إلى المدينة، وبها تكامل أمره، قد كان حوله أماكن وجود اليهود كخيبر وبنى قينقاع والنضير وغيرهم، فقد قام من بينهم، ولأنه إذا كان من إخوتهم فقد قام من بينهم، ولأن قوله من بين إخوتك، بدل من قوله من بينك بدل اشتمال على رأى ابن الحاجب ومتبعيه القائلين بكفاية علاقة الملابسة غير الكلية والجزئية فى تحقق هذا البدل،نحو جاءنى زيد أخوه، وجاءنى زيد غلامه، وبدل إضراب على رأى ابن مالك، والمبدل منه على كلا التقديرين غير مقصود، ويدل على كونه غير مقصود أن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام اللّٰه فى الآية الثامنة عشره لم يوجد فيه لفظ من بينك، ونقل بطرس الحوارى أيضا هذا القول، ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت فى الوجه السابع وكذا نقله استفانوس أيضا، ولم يوجد فى نقله أيضا هذا اللفظ ، كما ضرح به فى الباب السابع من كتاب الأعمال وعبارته هكذا« هذا هو موسى الذى قال لبنى إسرائيل نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون» فسقوطه فى هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود، فاحتمال البدل قوى جدا.

وقال صاحب الاستفسار: إن لفظ من بينك إلحاقى زيد تحريفا، ويدل على ثلاثة أمور.

الأول: أن المخاطبين فى هذا الموضوع كانوا بنى إسرائيل كلهم لا البعض فقوله: من بينك خطاب لجميع القوم، فصار لفظ من إخوتك لغوا محضا لا معنى له، لكن لفظ من إخوتك جاء فى الموضع الآخر أيضا فيكون صحيحا، ولفظ من بينك إلحاقيا زيد تحريفا.

الثانى : أن موسى عليه السلام لما نقل كلام اللّٰه لإثبات قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ، ولا يجوز أن يكون ما قال موسى مخالفا لما قاله اللّٰه .

والثالث: أن الحواريين كلما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك. وإن قلتم : إن المحرف إذا حرف فلم لَمْ يحرف الكلام كله؟

قلت: نحن نرى فى محاكم العدالة دائما أن القبالجات المحرفة يثبت تحريف الألفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالبا [1] وأن شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم .

(١) لعل معنى القبالجات الوثائق والمستندات، ومعنى الجملة أنها على وجود التحريف فيها يحتج ببعض عباراتها على إثبات التحريف فيها « وكذا على غيره » .

فالوجه الوجيه على أن عادة اللّه جارية بأنه لا يهدى كيد الخائنين، وبأنه يظهر خيانة خائن الدين بمقتضى رحمته، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شيء ما تظهر به خيانته، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين. فالخائنون الذين حرفوا كتب العهدين كان لهم لحاظ ما (١) من جانب بعض المتدينين. فلذلك ما بدلوا الكل.

أقول: هذا الجواب بالنسبة إلى عادة أهل الكتاب كما عرفت فى الأمر السابع. وأقول ـ فى الجواب عن الاعتراض الثانى ـ : أن آية الإنجيل هكذا « لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هـو كتب عنى» وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كتب فى حقه فى الموضع الفلانى، بل المفهوم منه أن موسى كتب فى حقه « مطلقا» وهذا يصدق إذا وجد فى موضع من التوراة بشارة إليه، ونحن نسلم هذا الأمر كما ستعرف فى ذيل بيان البشارة الثالثة، لكننا ننكر أن يكون قوله إشارة إلى هذه البشارة للوجوه التى عرفتها، وقد ادعى هذا المعترض فى الفصل الثالث من الباب الثانى من الميزان أن الآية الخامسة عشره من الباب الثالث من سفر التكوين إشارة إليه، فهذا القدر يكفى لتصحيح قول عيسى عليه السلام، نعم لوقال عيسى عليه السلام إن موسى عليه السلام ما أشار فى أسفاره الخمسة إلى نبى من الأنبياء إلا إلىّ لكان لهذا التوهم مجال فى هذه الحال.

البشـارة الثانية :

الآيه ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء «التثنية» هكذا (هم أغارونى بغير إله، وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم).

والمراد بشعب جاهل العرب؛ لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال، وما كان عندهم علم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام، وكانوا محقرين عند اليهود، لكونهم من هاجر.. فمقصود الآية أن بنى إسرائيل أغارونى بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون. فأوفى بما وعد، فبعث من العرب النبى ﷺ ، فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال اللّه تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

---

(١) لعله أراد أن يقول : كان عليهم عيون ورقباء .
(٢) الجمعة : ٢ .

وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس فى الباب العاشر من الرسالة الرومية،لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلاثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم فى العلوم والفنون،وكان منهم جميع الحكماء المشهورين ، مثل: سقراط وبقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو طاليس وأرشميدس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم، الذين كانوا أئمة الإلهيات والرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام، وكان اليونانيون فى عهده على غاية درجة الكمال فى فنونهم . وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها، وعلى سائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التى ظهرت باللسان اليونانى قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية، وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة، كما قال مقدسهم هذا فى الباب الأول من الرسالة الأولى إلى أهل قورنيثوس هكذا « ٢٢ لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة ٢٣ ولكننا نحن نركز بالمسيح مصلوبا لليهود عثرة ولليونانيين جهالة» فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، فكلام مقدسهم فى الرسالة الرومية إما مؤول أومردود ـ وقد عرفت فى الأمر الثامن أن قوله ساقط عن الاعتبارعندنا .

البشارة الثالثة :

فى الباب الثالث والثلاثين (١) من سفر «التثنية» فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا (٢وقال: جاء الرب من سينا، وأشرق لنا من ساعير(٢) واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار فى يمينةسنة من نار)(٣) .

فمجيئه من سينا، إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام، واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن ؛ لأن فاران جبل من جبال مكة، فقد جاء فى بيان حال إسماعيل عليه السلام من سفر التكوين (٢١ : ٢٠ وكان اللّه معه، ونما وسكن فى البرية، وصار شابا يرمى بالسهام ٢١ وسكن برية فاران، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) .

---

(١) هذا الباب هو الأخير من سفر التثنية، وفى الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا بها بنى إسرائيل .

(٢) فى التراجم الأخيرة سعير، بالكسر، والمراد بها واحد وفيهازيادة «وأتى من» .

(٣) المراد بالسنة الشريعة. وترجمة الجزويت « عن يمينه قبس شريعة لهم» وربوات القدس،وليس فيها ألوف الأطهار.

ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كانت سكناه بمكة، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا، فانتشرت فى هذه المواضع ؛ لأن اللّٰه لو خلق نارا فى موضع لا يقال جاء اللّٰه من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك. وقد اعترفوا بأن الوحى اتبع تلك « النار التى رآها موسى » فى طور سيناء فكذا لابد أن يكون فى سعير وفاران .

البشارة الرابعة :

فى الآية العشرين من الباب السابع عشرمن سفر التكوين وعد اللّٰه فى حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا (وعلى إسماعيل أستجيب لك، هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا ، فسيلد اثنى عشر رئيسا. وأجعله لشعب كبير) .

قوله: أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ﷺ ، لأنه لم يكن فى ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره. وقد قال اللّٰه تعالى حاكيا دعاء إبراهيم وإسماعيل فى حقه عليهم السلام فى كلامه المجيد أيضا :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

وقال الإمام القرطبى فى الفصل الأول من القسم الثانى من كتابه: وقد تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال: يخرج مما ذكره من عبارة التوراة فى موضعين اسم محمد ﷺ بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم.

الأول : قوله جدا جدا بتلك اللغة « بماد ماد» وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون، لأن الباء اثنان والميم أربعون، والألف واحد، والدال أربعة،والميم الثانية أربعون، والألف واحد، والدال أربعة، وكذلك الميم من محمد أربعون ، والحاء ثمانية، والميم أربعون ، والدال أربعة (٢) .

والثانى : قوله لشعب كبير بتلك اللغة « لغوى غدول» فاللام عندهم ثلاثون والغين

---

(١) البقرة : ١٢٩ .

(٢) يؤيد هذا ما روى عن أحبار اليهود المجاورين للمدينة فى زمن البعثة من ظنهم أن الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور لبيان أجل الأمة الإسلامية.

ثلاثة ـ لأنه عندهم فى مقام الجيم، إذ ليس فى لغتهم جيم ولا صاد ـ والواو ستة، والياء عشرة، والغين أيضا ثلاثة، والدال أربعة، والواو ستة، واللام ثلاثون، فمجموع هذه أيضا اثنان وتسعون، انتهى كلامه بتلخيص ما .

وعبد السلام كان من أحبار اليهود، ثم أسلم فى عهد السلطان المرحوم بايزيد خان، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها :

• « إن أكثر أدلة أحبار اليهود بحرف الجمل الكبير، وهو حرف أبجد ، فإن أحبار اليهود حين بنى سليمان النبى عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا: يبقى هذا البناء أربعمائة وعشر سنين، ثم يعرض له الخراب، لأنهم حسبوا لفظه « بزأت » ثم قال :

« واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء فى «بماد ماد» ليست نفس الكلمة بل هى أداة وحرف جىء به للصلة، فلو أخرج منه لاحتاج اسم محمد إلى باء ثانية ويقال: ببماد ماد » قلنا :

من المشهور عندهم إذا اجتمع الباءان: أحدهما: أداة، والآخر: من نفس الكلمة، تحذف الأداة، وتبقى التى هى من نفس الكلمة، وهذا شائع عندهم فى مواضع غير معدودة، فلا حاجة إلى إيرادها. انتهى كلامه بلفظه.

أقول: قد صرح العلماء بأن من أسمائه ﷺ ماد ماد كما فى شفاء القاضى عياض .

البشـارة الخامسة :

جاء فى ترجمات سنة ١٧٢٢م وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م العربية من سفر التكوين: (٤٩ : ١٠ فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من فخذه، حتى يجىء الذى له الكل و إياه تنتظر الأمم) .

وفى ترجمة سنة ١٨١١م (فلا يزول القضيب من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجىء الذى هو له، وإليه تجتمع الشعوب) .

ولفظ الذى له الكل أو الذى هو له ترجمة لفظ « شيلوه » .

وفى ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت فى الأمر السابع أيضا .

وقال عبد السلام فى الرسالة الهادية هكذا (لا يزول الحاكم من يهوذا، ولا راسم من بين رجليه، حتى يجىء الذى له وإليه تجتمع الشعوب) .

وفى هذه الآية دلالة على مجيء سيدنا محمد ﷺ بعد تمام حكم موسى وعيسى، لأن المراد من الحاكم هو موسى ؛ لأنه بعد يعقوب ما جاء صاحب شريعة إلى زمان موسى إلا موسى، والمراد من الراسم هو عيسى ؛ لأنه بعد موسى إلى زمان عيسى ما جاء صاحب شريعة إلا عيسى، وبعدهما ماجاء صاحب شريعة إلا محمد. فعلم أن المراد من قول يعقوب فى آخر الأيام هو نبينا محمد عليه السلام ؛ لأنه فى آخر الزمان بعد مضى حكم الحاكم والراسم ماجاء إلا سيدنا محمد عليه السلام .

ويدل عليه أيضا قوله (حتى يجيء الذى له ، أى الحكم، بدلالة مساق الآية وسياقها ، وأما قوله (وإليه تجتمع الشعوب) فهى علامة صريحة ودلالة واضحة على أن المراد منها هو سيدنا (محمد) لأنه ما اجتمع الشعوب إلا إليه، وإنما لم يذكر الزبور، لأنه لا أحكام فيه، وداود النبى تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب الأحكام. انتهى كلامه بلفظه.

أقول: إنما أراد من الحاكم موسى عليه السلام ؛ لأن شريعته جبرية انتقامية، ومن الراسم عيسى عليه السلام، لأن شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية. وإن أريد من القضيب السلطة الدنيوية، ومن المدبر الحاكم الدنيوى ـ كما يفهم من رسائل القسيسين من فرقة بروتستانت ومن بعض تراجمهم ـ فلا يصح أن يراد بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعومهم، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعوم النصارى .

أما الأول: فظاهر؛ لأن السلطة الدنيوية والحاكم الدنيوى زالا من آل يهوذا من مدة هى أزيد من ألفى سنة من عهد بخت نصر، ولم يسمع إلى الآن حسيس مسيح اليهود.

وأما الثانى: فلأنهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ستمائة سنة من عهد بخت نصر، وهو أجلى بنى يهوذا إلى بابل، وكانوا فى الجلاء ثلاثا وستين سنة لا سبعين كما يقول بعض علماء بروتستانت تغليظا للعوام ـ كما عرفت فى الفصل الثالث من الباب الأول ـ ثم وقع عليهم فى عهد « أنتيوكس» ما وقع فإنه عزل «أونياس» حبر اليهود وباع منصبه لأخيه «ياسون» بثلمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة، ثم عزله وباع ذلك لأخيه «مينالاوس» بستمائة وستين وزنة، ثم شاع خبر موته فطلب «ياسون» أن يسترد لنفسه الكهنوت، ودخل أورشليم بألوف من الجنود، فقتل كل من كان يظنه عدوا له ـ وهذا الخبر كان كاذبا ـ فهجم «أنتيوكس» على أورشليم وامتلكها ثانية فى سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا، وباع مثل ذلك عبيدا .

وفى الفصل العشرين من الجزء الثانى من مرشد الطالبين فى بيان الجدول التاريخى في الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد (أنه نهب أورشليم وقتل ثمانين ألفا) انتهى . وسلب ماكان فى الهيكل من الأمتعة النفسية التى كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب، وقرب خنزيرة وقودا على المدبح للإهانة، ثم رجع إلى أنطاكية وأقام فيلبس أحد الأرذال حاكما على اليهودية.

وفى رحلته الرابعة إلى مصر أرسل « آبولوينوس » بعشرين ألفا من جنوده، وأمرهم أن يخرجوا أورشليم ويقتلوا كل من فيها من الرجال، ويسبوا النساء والصبيان، فانطلقوا إلى هناك، وبينما كان الناس فى المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة، فقتلوا الكل، إلا من أفلت إلى الجبال أو اختفى فى المغاور، ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها ، وهدموا أسوارها، وخربوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك الهدم قلعة حصينة على جبل أكرا، وكانت العساكر تشرف منها على جميع نواحى الهيكل ، ومن دنا منهم يقتلونه، ثم أرسل أنتيوكس أثانيوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الأصنام اليونانية، ويقتل كل من لا يمتثل ذلك الأمر، فجاء أثانيوس إلى أورشليم،وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين، وأبطل الذبيحة اليومية، ونسخ كل طاعة للدين اليهودى عموما وخصوصا، وأحرق كل ما وجده من نسخ وكتب العهد العتيق بالفحص التام ، وكرس الهيكل للمشترى، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود، وأهلك كل من وجده مخالفا، أمر أنتيوكس، ونجا متاثياس الكاهن مع أبنائه الخمسة فى هذه الداهية، وفروا إلى وطنهم مودين فى سبط دان، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاما ما قدروا عليه على استطاعته، كما هو مصرح به فى التواريخ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟ !

وإن قالوا إن المراد ببقاء السلطنة الحكومة امتيازا لقوم كما يقول بعضهم الآن، قلنا: هذا الأمر كان باقيا إلى ظهور محمد ﷺ وكانوا فى أقطار العرب ذوى حصون وأملاك غير مطيعين لأحد، مثل يهود خيبر وغيرهم، كما تشهد به التواريخ، وبعد ظهور محمد ﷺ ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وصاروا فى كل إقليم مطيعين للغير ــ فالأليق أن يكون المراد بشيلوه النبى ﷺ لامسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام.

قلت: وقد أطال صاحب المنار فى نقل البشارات من الزبور والأناجيل مع التعليق عليه(١) وحسبنا هذا القدر من بشارات التوراة.

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٢٦٥ ــ ٣٠٠ .

رواية البخارى وغيره لصفات النبى محمد ﷺ فى التوراة :

وحتى لا يعترض أحد على بشارات التوراة من حيث السند والمتن. فإننا نذكر ما رواه البخارى وغيره عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، أن هذه الآية التى فى القرآن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

قال فى التوراة: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما . وقلوبا غلفا » [2] .

وفى رواية للدارمى، قال كعب :

نجده مكتوبا، محمد رسول الله ﷺ ، لا فظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحمادون، يكبرون الله عز وجل على كل نجد، ويحمدونه فى كل منزلة، ويتأزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادى فى جو السماء ، صفهم فى القتال وصفهم فى الصلاة سواء ، لهم بالليل دوى كدوى النحل، ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام [3] .

قال ابن حجر [4] : والملة العوجاء: أى ملة العرب، ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام، والمراد بإقامتها: أن يخرج أهلها من الكفر إلى الإيمان.

والأميون هم العرب [5] .

---

(١) الأحزاب : ٤٥.

(٢) البخارى : ٦٥ ـ التفسير (٤٨٣٨) وانظر: الأدب المفرد : ٣٨ ـ ٣٩ ، وأحمد: ٢:١٧٤، وابن سعد فى الطبقات:: ١ : ٢:٨٨، والدارمى: ١:٤ وما بعدها، والطبرى فى التفسير:٩: ٨٣ ووقع فيه: عبد العزيز بن سلمة، وهو خطأ ناسخ أو طابع ؛ لأنه عبد العزيز بن أبى سلمة: انظر: أحمد ١٠:١١٤ ـ ١١٦ (٦٦٢٢) تحقيق أحمد شاكر، وابن كثير فى التفسير : ٣ : ٤٩٦ ـ ٤٩٧ وزاد نسبته لا بن أبى خاتم، والسيوطى فى الدر المنثور:٣:١٣١ وزاد نسبته للبيهقى فى الدلائل .

(٣) الدارمى: ١:٤ ـ ٥. (٤) فتح البارى : ٤ : ٣٤٣. (٥) المرجع السابق : ٨: ٥٨٦ .

أشـهر أسـمائه ﷺ :

وحسبنا بعد ذلك أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾[1] .

وإيذاء بني إسرائيل لموسى ـ وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم ـ إيذاء متطاول، متعدد الألوان، [2] وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق.

وهناك صور شتى ـ غير ماسبق ـ من صور هذا الإيذاء وذلك العناد.. حيث كانوا يتسخطون على موسى عليه السلام، وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين:

﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾[3] .

كأنهم لا يرون في رسالته خيرا، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير!

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الذى أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون.. حتى قالوا ـ كما سبق ـ إلى عبادة فرعون وقومه :

﴿ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾[4] .

وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامرى :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝ ﴾[5] .

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم فى الصحراء : المن والسلوى . فقالوا :

﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ ﴾[6] .

---

(١) الصف : ٥ ـ ٦.   (٢) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٥٥٥ بتصرف .   (٣) الأعراف: ١٢٩ .
(٤) الأعراف : ١٣٨ .   (٥) طه : ٨٨ .   (٦) البقرة : ٦١ .

وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم، وهم يقولون:

﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ (١).

﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ (٢).

﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ (٣).

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤).

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه.

وأمام الأرض المقدسة التى بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ (٥).

فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا »:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ (٦).

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات و العصيان والتمرد، مما يطول الحديث فيه..

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة:

﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾

وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هى لهجة العتاب والتذكير..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد ما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

---

(١) البقرة: ٦٨. (٢) البقرة: ٧٩ . (٣) البقرة: ٧٠ .
(٤) البقرة: ٧١ . (٥) المائدة: ٢٢. (٦) المائدة: ٤٤ .

وبهذا انتهت قوامتهم على دين اللّه، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال ..

ثم جاء عيسى ابن مريم.. جاء ليقول لبنى إسرائيل :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾

فى هذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة يسلم بعضها إلى بعض، وهى متماسكة فى حقيقتها، واحدة فى اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة.. وهى الصورة اللائقة بمنهج الحق، فهو منهج واحد فى أصله، متعدد فى صوره، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة، حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى، فتجىء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، فى ضوء تلك؛ التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده ، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته.

وتطالعنا البشارة :

﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾

ويروى الشيخان وغيرهما عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، أن النبى ﷺ قال :

« **لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو اللّه بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب** » (١) .

وفى رواية لمسلم عن أبى عبيدة، عن أبى موسى الأشعرى قال: كان رسول اللّه ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال (٣) :

« **أنا محمد، وأحمد، والمقفّى، والحاشر، ونبىُّ التوبة ونبىُّ الرحمة** » .

قال ابن القيم : الفرق بين محمد وأحمد من وجهين :

---

(١) البخارى: ٦١ ـ المناقب (٣٥٣٢)، ٦٥ ـ التفسير (٤٨٩٦) ـ ، ومسلم: ٤٣ ـ الفضائل ١٢٤، ١٢٥ (٢٣٥٤)، ومالك: ٦١ ـ أسماء النبى ﷺ (١) والترمذى ٤٤ ـ الأدب (٢٨٤٠) .

(٢) مسلم : ٤٣ ـ الفضائل ١٢٦ (٢٣٥٥) .

أحدهما : أن محمدا هو المحمود حمدا بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذى يستحقه أفضل مما يستحقه غيره. فمحمد زيادة حمد فى الكمية، وأحمد زيادة فى الكيفية، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر.

والوجه الثانى : أن محمدا هو المحمود حمدا متكررا ـ كما تقدم ـ وأحمد الذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره. فدل أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ على كونه محمـودا .

ودل الاسم الثانى ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه. وهذا هو القياس، فإن أفضل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا من فعل المفعول، ذهابا إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدى، ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول، لقول العرب: «ما أشغله بالشىء».

إلى أن قال: والمقصود أنه ﷺ سمى محمدا وأحمد ؛ لأنه يحمد أكثر ما يحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره. فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا هو المختار. وذلك أبلغ فى مدحه، وأتم معنى. ولو أريد به اسم الفاعل لسمى « الحماد» وهو كثير الحمد، كما سمى محمدا، وهو المحمود كثيرا. فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدا لربه. فلوا كان اسمه باعتبار الفاعل، لكان الأولى أن يسمى حمادا، كما أن اسم أمته الحمادون .

وأيضا فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمى محمدا وأحمد، فهذا الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات وأهل الأرض. فلكثرة خصائله التى تفوت عد العادين سمى باسمين من أسماء الحمد، يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة (١) .

تلك أشهر أسماء النبى ﷺ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك، اعتنى بجمعها الحافظان: أبو بكر العربى، وأبو القاسم بن عساكر، وأفرد الناس فى ذلك مؤلفات. حتى رام بعضهم أن يجمع له عليه الصلاة والسلام ألف اسم، وأما الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى شارح الترمذى، فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسما (٢).

---

(١) تفسير القاسمى : ١٦ : ٥٧٨٩ ـ ٥٧٩٠.

(٢) السيرة النبوية: ابن كثير: ١٨٣ ـ ١٨٤.

طبيعة أهل الكتاب :

ولقد وقف بنو إسرائيل فى وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل الطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم..

حاربوه بالاتهام :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بهذا الدين:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾[1].

وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامى، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار..

وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة، ومع المشركين تارة..

وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين، كما وقع فى غزوة الأحزاب..

وحاربوه بالإشاعات الباطلة، كما جرى فى حادث الإفك.. ثم ماجرى فى أيام عثمان ..

وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التى دسوها، حين عجزوا عن الوضع الكذب فى القرآن الكريم ..

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى هذه اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه فى غير هوادة ولا هدنة فى جيل من الأجيال..

حاربوه فى الحروب الصليبية فى المشرق..

وحاربوه فى الأندلس والمغرب..

وحاربوه فى الوسط فى دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء، حتى مزقوها وقسموا

(١) الصف: ٧ ـ ٩.

تركة ما كانوا يسمونه «الرجل المريض» واحتاجوا أن يزيفوا أبطالا مزيفين فى أرض الإسلام يعملون لهم فى تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم « الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامى صنعوا هنالك « بطلا » ونفخوا فيه، وتراجعت جيوش الحلفاء التى كانت تحتل الأستانة أمامه، لتصنع منه بطلا فى أعين الخفافيش، يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلان دوله مدنية لاعلاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة، كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ ﴾

وهذا النص القرآنى يعبر عن حقيقة، ويرسم فى الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فقد كانوا يقولون بأفواههم:

﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

وهم يدسون ويكيدون، محاولين القضاء على هذا الدين القيم، وهى صورة بائسة، وهم يحاولون إطفاء نور اللّه بنفخة من أفواههم وهم الضعاف المهازيل:

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وصدق اللّه وعده..أتم نوره فى حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعية من المنهج الحق المختار..

صورة ذات معالم واضحة، وحدود مرسومة تترسمها الأجيال، لا نظرية فى بطون الكتب، ولكن حقيقة فى عالم الواقع..

وأتم نوره، فأكمل للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضى لهم الإسلام دينا يحبونه، ويجاهدون فى سبيله.. فتمت حقيقة الدين فى القلوب وفى الأرض سواء..

وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم من كل ما وجه إلى الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور اللّه لايمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد فى أيدى العبيد! وإن خيل للطغاة البغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أيدى أهل الكتاب ومن شايعهم أنهم بالغوا الهدف البعيد!

لقد جرى قدر اللّه أن يظهر هذا الدين، وإن كره اليهود ومن على شاكلتهم، فكان من الحتم أن يكون :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

وشهاده اللّه لهذا الدين بأنه «الهدى ودين الحق» هى الشهادة وهى كلمة الفصل التى ليس بعدها زيادة.. ولقد تمت إرادة اللّه فظهر هـذا الدين على الدين كله.. ظهر فى ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر فى حقيقته وفى طبيعته.

فأما الوثنية فليست فى شىء فى هذا المجال.

وأما الكتابية فهذا الدين هو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، ثم إنها قد شوهت وحرفت ـ كما أسلفنا ـ وزيد عليها ما ليس منها، ومزقت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشىء من قيادة الحياة. فوق أنها أساسا لم تشمل كل مطالب الحياة أبدا، لأنها جاءت فى تقدير اللّه لأمد محدود!

فهذا تحقيق وعد اللّه من ناحية حقيقة هذا الدين. فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد اللّه، حيث ظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله، فدانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض فى مدى قرن من الزمان. ثم زحـف زحفا سليما بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى ..

وما يزال يمتد بنفسه ويمتد.. منذ أن قضت الصهيونية العالمية ومن على شاكلتها على الخلافة على يدى البطل الذى صنعوه! وعلى الرغم من كل ما يرصد فى أرجاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الناهضة فى كل بلد من بلاد الإسلام على أيدى أبطال آخرين مزيفين! من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء !

وما تزال لهذا الدين القيم أدوار فى تاريخ البشرية يؤديها.. ظاهرا بإذن اللّه على الدين كله، تحقيقا لوعد اللّه الذى لا تقف له جهود العبيد المهازيل مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التى اختارهم اللّه لها، وهم يواجهون كيد أهل الكتاب،. وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر اللّه

فى إظهار الدين القيم الذى أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة.. وما تزال حافزا مطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم.. وستظل تبعث فى الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر، حتى يتحقق وعد اللّٰه فى واقع الحياة بإذن اللّٰه، ونبصر هزيمة اليهود ومن على شاكلتهم .

الفصل الثانى

الترغيب والترهيب

تمهيد ـ مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ـ عدالة القرآن فى أحكامه عليهم ـ «يؤتون أجرهم مرتين» ـ مقابلة ـ إباحة طعامهم والزواج من المحصنات من نسائهم ـ إشادة ومودة ـ إنذار بالعقوبة ـ بغى وحسد.

تمهـــيد :

إن دعوة اللّه عز وجل التى حملها نوح والرسل من بعده، حتى وصلت إلى خاتم النبيين صلوات اللّه وتسليماته عليهم أجمعين، لهى دعوة واحدة من عند اللّه وحده (١) ، ذات هدف واحد، هو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه..

وإن المؤمنين باللّه ورسوله ، لا يفرقون بين اللّه ورسله ، لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلهم أمة واحدة تعبد إلها واحدا..

وإن البشرية فى جميع أجيالها لصنفان اثنان:

صنف المؤمنين وهم حزب اللّه، وحملة هذه الأمانة الكبرى، وورثة هذا الخير الموصول، وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة فى تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون.

وصنف المشاقين للّه، وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان..

هذه هى الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التى يقوم عليها الإسلام .. هذه الحقيقة التى ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم، أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل تجارة.. ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة فى عقيدة تذوب فيها الأجناس والألوان، وتختفى فيها القوميات والأوطان، ويتلاشى فيها الزمان والمكان. ولا تبقى إلا العروة الوثقى فى الخالق الرحمن .

مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن :

وفى مجال دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان باللّه ورسله يرشد القرآن المسلمين إلى أمثل الطرق (٢). فى محجتهم من حيث الأسلوب والموضوع.

فمن حيث الأسلوب أوصى بأن يكون أسلوبنا معهم فى الجدال هادئا حسنا، ماداموا غير متعنين ظالمين.

ومن حيث الموضوع أوصى بأن يكون جدالنا معهم قائما على إقناعهم بأن دين اللّه

(١) فى ظلال القرآن : ٥ :٢٧٤٥ بتصرف.

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ١٦٠ بتصرف .

واحد، وأن إلهنا وإلههم واحد، وإننا لانبغى منهم إلا أن يتبعوا الحق الذى اتبعناه، وأن يتركوا العناد والجحود:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

واستثنى القرآن الكريم من هذه المعاملة الحسنة الذين ظلموا من أهل الكتاب، فانحرفوا عن التوحيد الذى هو قاعدة العقيدة الباقية [2]، وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه فى الحياة، فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة.. وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت لهم دولة فى المدينة.

وإن بعضهم ليفترى على رسول الله ﷺ أنه حاسن أهل الكتاب وهو فى مكة مطارد من المشركين. فلما أن صارت له قوة فى المدينة حاربهم، مخالفا كل ماقاله فيهم وهو فى مكة!

وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكى عليه. فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين اللّه، وعن التوحيد الخالص الذى جاءت به جميع الرسالات:

﴿ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق و النزاع، والجدل والنقاش، وكلهم يؤمنون بإله واحد، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم، وهو فى صميمه واحد، والمنهج الإلهى متصل الحلقات..

عدالة القرآن فى أحكامه عليهم:

وقد نعت القرآن الكريم أهل الكتاب، بصفة عامة،[3] بنعوت كثيرة، كغلوهم فى الدين، واتباعهم طريق الباطل، ودمغ اليهود منهم بصفة خاصة بكثير من الرذائل كقتلهم لأنبياء الله، وتحريفهم للكلم عن مواضعه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وعدم تناهيهم عن

---

(١) العنكبوت : ٤٦.
(٢) فى ظلال القرآن: ٥: ٢٧٤٥ بتصرف.
(٣) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١ : ١٥٦ بتصرف.

منكر فعلوه.. إلى غير ذلك من الصفات القبيحة التى وصفهم بها ـ كما عرفنا وكما سيأتى ـ بسبب فسوقهم وفجورهم، ولكن المتتبع لآيات القرآن يرى أنه فرق بين صالحيهم وطالحيهم ، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه.. ملتزما فى ذلك طريق العدالة والصدق..

ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1].

لقد تضمن ميثاق الله معهم[2] : ألا يعبدوا إلا الله.. القاعدة الأولى للتوحيد المطلق.. وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين.. وتضمن خطاب الناس بالحسنى ، وفى أولها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة.. وهذه هى فى مجموعها قواعد الدين وتكاليفه.. ومن ثم تتقرر حقيقتان :

الأولى : وهى وحدة دين الله، وتصديق الدين القيم لما قبله فى أصوله..

الثانية: هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين القيم، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق.

وهنا ـ فى هذا الموقف المخجل ـ يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب، فيوجه القول إلى بنى إسرائيل. وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى المؤمنين. ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات فى سياق القصص وغيره فى هذا القرآن!

وقوله « إلا قليلا منكم » استثناء لبعض من كانوا فى زمن موسى عليه السلام ، أو فى كل زمن. فإنه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم[3] والحكمة فى ذكر الاستثناء هنا عدم بخس المحسنين حقهم، وبيان

---

(١) البقرة : ٨٣ . (٢) فى ظلال القرآن: ١ : ٨٧ بتصرف . (٣) تفسير القاسمى : ٢ : ١٨١ بتصرف .

أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهى إذا فشا فيها المنكر، وقل المعروف. « وأنتم معرضون » عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق.

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1].

جاء فى المنار[2] : كان التذكير فى الآية السابقة بأهم المأمورات التى أخذ الله تعالى الميثاق على بنى إسرائيل بها، بعد توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وبيان أنهم نقضوا ميثاق الله تعالى، ولم يأتمروا بها.. وفى هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التى أخذ الله الميثاق عليهم باجتنابها، وبيان أنهم نقضوا ميثاقه، ولم ينتهوا عنها، وقد قال فى الآية السابقة: « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل » أى الذين نزلت عليهم التوراة، ثم التفت إلى خطاب الحاضرين فى زمن التنزيل فقال : « ثم توليتم » وقال هاهنا : « وإذ أخذنا ميثاقكم » تماديا فى سياق الالتفات، وتذكيرا بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد، ويصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر، ما استنوا بسنتهم، وجروا على طريقتهم، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة فى قواه النفسية، وطبع ملكاته، بعد انحلال مادة تلك الأعضاء التى ابتدأت العمل، وحلول مواد أخرى فى محلها، تتمرن على مثل ذلك العمل ، فما يفعله الشخص فى صغره يبقى أثره فى قواه فى كبره، فكذلك الأمم.

وقد أورد النهى عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة ، وتحدث فى النفس أثرا شريفا يبعثها على الامتثال، إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال: «لا تسفكون دماءكم» فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر

---

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٦ . (٢) تفسير المنار: ١: ٣٧١ بتصرف.

بيده، وقال: ﴿ **ولا تخرجون أنفسكم من دياركم** ﴾ على هذا النسق.. وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن الكريم ..

والعبارة عندهم لا تطاول هذه العبارة التى تدهش صاحب الذوق السليم، والوجدان الرقيق، فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام، يهدى إلى أسرارها، ويومئ إلى مشرق أنوارها، من تدبره علم أنه لاقوام للأمم إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم. لا فرق فى الاحترام بين الروح التى تجول فى بدنه والدم الذى يجرى فى عروقه وبين الأرواح والدماء التى يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة. هذا هو الوجه الوجيه فى الآية، وقيل: معناها لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار..

وقوله تعالى: ﴿ **ثم أقررتم وأنتم تشهدون** ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان فيه من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله، وشهودهم الوحى الذى نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام .

وثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم، أى أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه فى قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به.

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه ولا ينكرون منه شيئا، ذكر نقضهم إياه فقال: « ثم أنتم هؤلاء » الحاضرون الشاهدون المشاهدون: « تقتلون أنفسكم » أى يقتل بعضكم بعضا، كما كان يفعل من قبلكم، مع اعترافكم بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذا عليهم :

كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بنى قريظة إخوانهم فى الدين، وكان الأولون حلفاء الأوس، والآخرون مع بنى النضير حلفاء الخزرج. ثم بقى بنو النضير مع الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء ، وكانوا يقتتلون، ومع كل حلفاؤه، فهذا ما احتج الله تعالى على بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم فى عصر التنزيل.

ويتبع هذا القتال الأسر، ومن لوازمة الإخراج من الديار، ولذلك قال:

﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾

فالقرآن يصرح هنا وفى آيات كثير ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تائبا، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله تعالى عنه وتحريمه له، فهو كافر به ؛ لأن المؤمن بأن هذا الشيء حرمه الله تعالى، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته، لا يمكن أن يكون لإيمان قلبه أثر فى نفسه، فإن من الضروريات أن لكل اعتقاد أثرًا فى النفس، ولكل أثر فى النفس تأثيرًا فى الأعمال.

ويقول الشيخ محمد الخضر حسين (١) : وإنما سمى الله سبحانه عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرا، لأن من عصى أمر الله تعالى بحكم عملى معتقدا : أن الحكمة والصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآيه الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين، لأن الإيمان كل لا يتجزأ.

وفى المنار (٢) : سمى الله الذنب هنا كفرا، لما تقدم، وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال:

﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

أوعدهم اللّه تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذى يجمعهم، والشريعة التى هى مناط وحدتهم، ورباط جنسيتهم، بالخزى العاجل، والعذاب الآجل، وقد دل المعقول، وشهد الوجود، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها واعتدت حدود شريعتها إلا وانتكث فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان، وهو الخزى المراد، وهذه هى سنة الخليقة، ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها.

وأما العذاب الآجل الذى عبر عنه بقوله:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾

فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى، وهاد إلى حكمة عليا، ذلك أن النفوس البشرية إذا اختلت بفساد الأخلاق أمورها، وكثرت فى هذا العالم شرورها، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة، واستقاموا على الطريقة، تكون جديرة بأن

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢ : ١٠٢ نقلا عن : مجلة لواء الإسلام : العدد ١١ السنة الثانية .

(٢) تفسير المنار : ١: ٣٧٤ بتصرف .

تسلب فى الآخرة ما أعده الله تعالى للأرواح العالية، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية، فإن سعادة الدار الدنيا لم تكن أجرا على أعمال بدنية، لا تتعلق بصلاح النفس فى خلق ولانية، وإنما هى ثمرة تزكية النفس التى يتوسل إليها بعمل الحس، فإذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية، وهى الدار التى تغلب فيها الروحانية ؟

وصدق الله العظيم :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾[1].

هذا هو نقض الميثاق الذى يتهددهم عليه بالخزى فى الحياة الدنيا، [2]. والعذاب الأشد فى الآخرة. مع التهديد الخفى بأن الله ليس غافلا عنه ولا متجاوزا :

﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥ ﴾

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشر جميعا، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وقصة شرائهم الحياة الدنيا فى هذه المناسبة: هى أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين فى حلف يقتضى مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هى هى خطة اليهود التقليدية، فى إمساك العصا من الوسط، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة، كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال، وضمانها فى النهاية، سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهى خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد.. والإيمان يحرم على أهله الدخول فى حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا فى اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.. وهذا كله عقب قوله تعالى :

---

(١) الشمس : ٧ ــ ١٠ .   (٢) فى ظلال القرآن : ١ : ٨٨ بتصرف.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم فى أحكامه عليهم..

ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[1].

قال ابن كثير [2] : يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد، مع ما هم مؤمنين به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أى مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أى لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم..

وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [3].

وقال سبحانه:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [4].

وقال جل شأنه:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [5].

وقال تعالى :

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [6].

---

(١) آل عمران : ١٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٤٣:١ بتصرف .

(٣) البقرة : ١٢١ .

(٤) الأعراف : ١٥٩.

(٥) آل عمران : ١١٣.

(٦) الإسراء : ١٠٧ ــ ١٠٩.

وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلا، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن أسلم من أحبار اليهود..

﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾

وقال جل شأنه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾[1].

ويروى البخارى وغيره عن أبى بردة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

« ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران»[2].

يقول ابن حجر [3]: وقد ثبت أن الآية الموافقة لهذا الحديث وهى قوله تعالى:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾[4].

نزلت فى طائفة آمنوا منهم، كعبد الله بن سلام وغيره . ففى الطبرانى من حديث رفاعة القرظى قال: نزلت هذه الآيات فيَّ وفيمن آمن معى. وروى الطبرانى بإسناد صحيح عن على بن رفاعة القرظى قال: خرج عشرة من أهل الكتاب ـ منهم أبو رفاعة ـ إلى النبى ﷺ فآمنوا به فأوذوا فنزلت:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾[5].

الآيات، فهؤلاء من بنى إسرائيل، ولم يؤمنوا بعيسى، بل استمروا على اليهودية إلى أن آمنوا بمحمد ﷺ وقد ثبت أنهم يؤتون أجرهم مرتين.

وقد كتب النبى ﷺ ـ كما فى البخارى ومسلم [6] ـ من حديث أبى سفيان وفيه:

---

(١) القصص : ٥٢ ـ ٥٤.

(٢) البخارى: ٣ ـ العلم (٩٧) واللفظ له، ومسلم : ١ـ الإيمان ٢٤١ (١٥٤)، والنسائى : ٦ : ١١٥، والترمذى (١١١٦)، والدارمى : ٢:١٥٤ ـ١٥٥، وأحمد : ٤:٤٠٢، ٤٠٥ .

(٣) فتح البارى : ١ : ١٩١ .   (٤) القصص : ٥٤.   (٥) القصص : ٥٢ .

(٦) البخارى: ١ ـ بدء الوحى (٦)، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٧٤ (١٧٧٣).

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين» .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

قال ابن حجر: واستنبط منه شيخنا شيخ الإسلام : أن كل من دان بدين أهل الكتاب كان فى حكمهم فى المناكحة والذبائح، لأن هرقل هو وقومه ليسو من بنى إسرائيل، وهم ممن دخل فى النصرانية بعد التبديل، وقد قال له ولقومه: « يأهل الكتاب» فدل على أن لهم حكم أهل الكتاب، خلافا لمن خص ذلك بالإسرائيليين، أو بمن علم أن سلفه ممن دخل فى اليهودية أو النصرانية قبل التبديل (٢) .

مقابلـــة :

وفى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل دعوة منصفة من غير شك ..دعوة لا يريد بها خاتم النبيين ﷺ أن يتفضل على أهل الكتاب هو ومن معه من المسلمين (٣) : كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد .. لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعبد بعضهم بعضا.. دعوة لا يأبها إلا متعنت مفسد، لا يريد أن يفىء إلى الحق القويم، والصراط المستقيم..

إنها دعوة إلى عباده الله وحده لا يشركون به شيئا .. لا بشرا ولا حجرا.. ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا دون الله أربابا.. لانبيا ولارسولا، فكلهم لله عبيد. إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لا لمشاركته فى الألوهية والربوبية:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

إن أول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية.. لا عبودية إلا لله.. ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. فليس إلا لله تكون العبودية.. وليس إلا لله تكون الطاعة.. وليس إلا عن اللّه يكون التلقى.. التلقى فى التشريع، والتلقى فى القيم

---

(١) آل عمران : ٦٤.

(٢) فتح البارى : ١ :٣٨ ــ ٣٩.

(٣) فى ظلال ل القرآن : ١ : ٦. ٤ بتصرف.

والموازين.. والتلقى فى الآداب والأخلاق.. وإلا فهو الشرك أو الكفر، مهما اعترفت الألسن ذلك الاعتراف السلبى الذى لا ينشئ آثاره فى الحياة فى استسلام وطاعة واستجابة وقبول.

وإن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره، ولا يصلح حاله، إلا أن يكون هناك إله واحد، يدبر أمره:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

وما يقع الفساد فى الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة فى الأرض، على هذا النحو الذى عرفناه ـ عند اليهود وغيرهم ـ ومن ثم كانت دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء.. إلى عبادة الله وحده:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك .. و العبودية لله وحده دون شريك.. وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية.. إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا قد رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا. وبمحمد ﷺ نبينا ورسولا..

وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون.. المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .. هذه هى خصيصتهم التى تميزهم من سائر الملل والنحل، وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعا !

إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد.. والنظام الإسلامى هو وحده من بين سائر النظم الذى يحقق هذا التحرر..

إن الناس فى جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.. يقع هذا فى أرقى الديمقراطيات كما يقع فى أحط الديكتاتوريات سواء..

وفى النظام الإسلامى وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة، ويصبح حرا يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من منهج الحق..

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

ويأتى الترهيب الرعيب لكل من لم يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وذلك فيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«والذى نفسى بيده! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» [1].

إباحة طعامهم والزواج من المحصنات من نسائهم :

ومن مظاهر سماحة الدين الإسلامى مع أهل الكتاب أنه أجاز أكل طعامهم وأحل ذبائحهم، والتعامل معهم، والزواج منهم:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [2].

إن الإسلام لا يكتفى بأن يترك لهم حريتهم الدينية [3]، ثم يعتزلهم، فيصبحوا فى المجتمع الإسلامى مجفوين معزولين أو منبوذين، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخلطة . فيجعل طعامهم حلا للمسلمين، وطعام المسلمين حلا لهم كذلك.. ليتم التزاور والتضايف، وليظل المجتمع كله فى ظل المودة والسماحة.. ولسنا هنا فى مجال تفصيل القول فى ذلك حتى لا يطول بنا الحديث [4]..

وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم طيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر المحصنات من المسلمات .. وهى سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الملل والنحل !

فإن الكاثوليكى المسيحى ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية! ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة!

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يسمح بقيام مجتمع عالمى، لا عزلة

---

(١) مسلم : ١ ــ الإيمان ٢٤٠ (١٥٣) .

(٢) المائدة : ٥

(٣) فى ظلال القرآن : ٢ : ٨٤٨ بتصرف .

(٤) انظر تفسير الطبرى :٦ : ١٠٠ وما بعدها ، : ٦: ١٧٧ وما بعدها، والقرطبى :٦: ٧٥ وما بعدها . وابن كثير : ٢ : ١٩ ــ ٢٠ .

فيه بين المسلمين وأهل الكتاب،ولا حواجز بينهم فيما يختص بالعشرة والسلوك..

أما الولاء فله حكم آخر يجيء في حينه إن شاء الله تعالى..

وشرط الحصانة الخلقية يدعونا إلى التريث والتروى عند اختيار شريكة الحياة، ورفيقة العمر، حتى يبلغ الزواج غايته، ويحقق ثمرته.

ومن نافذة الحصانة الخلقية، التى يطل منها المرء على زواج هانئ، يهدف حقا لتحقيق السكينة والمودة والرحمة نذكر اختلاف الآراء فى زواج المسلم من الكتابية..

وبادئ ذى بدء [1] نرى جمهور المسلمين على جواز الزواج بالكتابيات المحصنات، بيد أن لبعض الصحابة تقديرا للأمر جديرا بالتأمل والاعتبار..

من هؤلاء عمر وابن عباس رضى الله عنهما.

فأما عمر فقد كره ذلك فى الوقت الذى يكون فيه الخلق والسلوك منهن فى موضع الشك.

وقد روى الطبرى بسنده عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: «خل سبيلها» فكتب إليه: «أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها»؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكن أخشى أن تعطوا المومسات منهن [2].

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح [3].

وأما ابن عباس فقد احتاط للزواج من ناحية،ولصالح المجتمع من ناحية أخرى، فحرم الزواج من الكتابية إذا كانت عدوا أو موالية لعدو، وبهذا فرق بين الذمية والحربية. ولهذا الرأى وجاهته، فالزواج فى هذه الحال لا يحقق الأهداف التى شرعه الله عز وجل من أجلها، إذ كيف السكون إلى عدو أو جاسوس؟!

وكيف تكون المودة بين اثنين، أحدهما مؤمن بالله ورسوله والآخر يحاد الله ورسوله؟!

بل كيف تسود الرحمة بين الزوجين، ثم تسرى فى أوصال المجتمع من زواج لا يعدو أن يكون خنجرا مسددا للقضية الوطنية، ويتعرض الأبناء فيه ـ لاريب ـ لفتنة دينية، أو صراع عقائدى حاد، بين هذين الأبوين ؟!

وقد روى الطبرى بسنده عن ابن عباس قال:

---

(١) منهج السنة فى الزواج: ٣٤٠وما بعدها بتصرف.

(٢) تفسير الطبرى: ٢: ٣٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير: ١: ٢٥٧.

من نساء أهل الكتاب من يحل لنا، ومنهم من لا يحل لنا، ثم قرأ:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١).

فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه، ومن لم يعط الجزية لم يحل لنا نساؤه. قال الحكم: فذكرت ذلك لإبراهيم فأعجبه (٢).

وقد أورد أبو بكر الجصاص هذا الرأى ومال إلى ترجيحه، واحتج له فقال: ومما يحتج به لقول ابن عباس قوله تعالى:

﴿لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ (٣).

والنكاح يوجب المودة، يقول تعالى:

﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (٤).

ثم أضاف قوله:

فينبغى أن يكون نكاح الحربيات محظورا، لأن قوله تعالى: يوادون من حاد الله ورسوله إنما يقع على أهل الحرب، لأنهم فى حد غير حدنا (٥).

فى الوقت الذى رأى فيه ابن عمر رضى الله عنهما أن الكتابية مشركة، وذلك فيما رواه البخارى عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: إن الله حرم المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئا أكبر من أن تقول المرأة ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله (٦).

وكان يرى أن آية البقرة:

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ (٧).

---

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) تفسير الطبرى: ٩: ٥٨٨ تحقيق أحمد شاكر. والجصاص: ٢: ٣٩٩ وقد أشار إليه ابن كثير فى التفسير دون أن ينسبه: ٢: ٢٠.

(٣) المجادلة: ٢٢.
(٤) الروم: ٢١.

(٥) أحكام القرآن: ٢: ٣٩٩.
(٦) البخارى: ٦٨ ـ الطلاق (٥٢٨٥).
(٧) البقرة: ٢٢١.

غير مخصوصة بآية المائدة:

﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾[1].

ولامنسوخة بها،فيراد بها النصارى واليهود. وهو مايصدق عليه إطلاق لفظ أهل الكتاب.

لم يكن ابن عمر يرى شيئا من هذا كما رأى كثيرون سواه.

وروى عنه أيضا: التوقف بين الآيتين دون أن يقطع برأى.

وقد روى أبو بكر الجصاص من طريق أبى عبيد، عن ميمون بن مِهران، قال: قلت لابن عمر: إنا بأرض يخالطنا فيها أهل الكتاب، أفننكح نساءهم، ونأكل طعامهم، قال فقرأ على آية التحليل وآية التحريم ، قال: قلت: إنى أقرأ ماتقرأ، أفننكح نساءهم ونأكل طعامهم؟ قال فأعاد على آية التحليل وآية التحريم.

أى أنه ـ كما ذكر الجصاص ـ لما رأى إحدى الآيتين تحلل والأخرى تحرم توقف ولم يقطع الإباحة[2] .

وعلى قدر موقف ابن عمر فى التحريم المطلق للكتابيات ـ كما روى البخارى ـ نجد رأيا مقابلا له يرى إباحة الكتابيات على الإطلاق .

ذلك هو رأى ابن جرير الطبرى وبعض المتقدمين، وقد أسسوا ذلك على أن المراد بالمحصنات: الحرائر مطلقا، ونص عبارة الطبرى:

فنكاح حرائر المسلمين وأهل الكتاب حلال للمؤمنين[3] ، كن قد أتين بفاحشة أو لم يأتين بفاحشة: ذمية كانت أو حربية، بعد أن تكون بموضع لا يخاف الناكح فيه على ولده أن يجبر على الكفر، بظاهر قول الله عز وجل :

﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾

قال ابن كثير[4] : قيل: أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة، كما قال فى الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور ها هنا، وهو الأشبه، لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهى مع ذلك غير عفيفة،

---

(١) المائدة : ٥ .

(٢) أحكام القرآن : ٢ : ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣) تفسير الطبرى : ٦: ١٠٨ .

(٤) تفسر ابن كثير :٢: ٢٠ .

فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل فى المثل: «حشفا وسوء كيلة» .

والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال الله تعالى:

﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ (١) .

وعلى كل فنحن الآن فى منطقة التخير التى يفاضل فيها المرء بين أمرين، والتى يكون فيها ترغيب الشريعة فى أحدهما، وتنفيرها من الآخر(٢) !

أو فى المنطقة الحرام التى يمنع فيها المؤمن أن يقترب من مرتع الكوافر أو الفواسق، ومجمع الغوانى! كى يختار إحداهن رفيقة حياته، وأم أبنائه وبناته!

وماذا فى هذه المنطقة سوى بيع الجسد، وضياع الشرف، وهوان الضمير؟ !

إن التى تبيع جسدها للطامع فى متعته. ألا تبيع وطنها للطامع فى ثروته؟ !

والتى تهون عندها عفتها .. كيف تصون لبلادها عزتها؟ !

والتى تداس بين يديها القيم.. أين هى من الخلق؟ وأين منها السلوك؟ وأبناؤها أىّ لبان يرتضعون؟ !

أهذه هى التى تحفظ المرء فى نفسها وماله إذا غاب عنها، وتعينه على أمر الآخرة ، وتستأهل أن يعطيها على نفسه العهد الوثيق، والميثاق الغليظ؟ !

أم هى التى تعد للوطن الجندى والقائد، والعامل والعالم، والتى عناها حافظ إبراهيم حين قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق؟ !

كيف يتزوج المسلم مثل هذه على سنة الله ورسوله، مهما تكن ـ بزعمها ـ مسلمة، وكيف إذا كانت كتابية، بل كيف إن تكن عدوا أو مواليه لعدو؟ !

والله تعالى يقول :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

---

(١) النساء : ٢٤ . (٢) منهج السنة فى الزواج : ٣٤٥ بتصرف .

﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [1].

فهل فى هذه المنطقة يسوغ قول ابن جرير ومن وافقه ؟ !

أين نحن إذا من قوله تعالى :

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [2].

وقوله سبحانه :

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [3].

وأين نحن من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه: «**تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك** » [4].

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : « **الدنيا متاع . وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة** » [5].

بل كيف يمكن أن يوفق أولئك الذين يختارون من تلك المراعى الوبيئة بين هذا الزواج وبين ما اشترط المولى فى قوله:

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

أن يكونوا به :

﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٍۗ﴾

إن الذى يتخطى هذه المنطقة ، وتعميه الثروة عن تتبع السنن اللاحب ، والنهج الوضىء فينكح إحدى هؤلاء، لا يكون قد أخذ من النكاح إلا صورته، التى تدرأ عنه الحد، وتدفع عنه التهمة، ولكنه لا يفتأ يبوء بإثمه وخزيه، لمخالفته عن أمر ربه، وتوجيه نبيه، وانسلاخه عن قيم دينه ومثله، فضلا عن خيانته لمجتمعه ووطنه.

أجل: ففاقد العفاف ، كيف يحصن غيره بسياجه؟!

---

(١) النساء : ٣ . (٢) النساء: ٣٤ . (٣) النساء : ٣٤ .

(٤) البخارى : ٦٧ ـ النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم : ١٧ ـ الرضاع ٥٣ (١٤٦٦) ، وأبو داود (٢٠٤٧) ، والنسائى : ٦ : ٦٨ ، وابن ماجه (١٨٥٨) .

(٥) مسلم : ١٧ ـ الرضاع ٦٤ (١٤٦٧) ، والنسائى :٦ : ٦٩ .

قال ابن حجر: وأخرج ابن أبى شيبة بسند حسن أن عطاء كره نكاح اليهوديات والنصرانيات، وقال: كان ذلك والمسلمات قليل، وهذا ظاهر فى أنه خص الإباحة بحال دون حال.. ثم قال: وقد فصل كثير من العلماء كالشافعية بين من دخل آباؤها فى ذلك الدين قبل التحريف أو النسخ أو بعد ذلك، وهو من جنس مذهب ابن عمر، بل يمكن أن يحمل عليه (١).

والآن نعيش حالة حرب مع اليهود وأشياعهم، ومن ثم نرجح الرأى السابق القائل بأن نكاح الحربيات محظور، ونلفت النظر إلى ضرورة وأهمية اختيار ذات الدين، قال ابن القيم ـ بعد أن ساق ما يدل على روح الإسلام من آيات وأحاديث ـ (٢): فالذى يقضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين فى الكفاءة أصلا وكمالا..

وكيف نختار الآن من أهل الكتاب ونحن نسمع ونقرأ عن الحرية الجنسية فى تلك المجتمعات ما يجعلنا نبتعد عن هذا الوباء الذى ظهرت آثاره فى التحلل الأخلاقى والأمراض الجنسية ؟ !

وكيف نختار من أهل الكتاب وقد أكثر الله المسلمات؟!

إشادة ومودة :

وإن الترحيب المتوقع من اليهود نلمح دلائله فى كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة، فإن عبدة الأوثان إذا أنكروا النبوة، فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٣).

وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله، فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا وجدوا من يذكرهم بالله:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٤).

ويروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

---

(١) فتح البارى :٩: ٤١٧.
(٢) زاد المعاد :٥: ١٥٩ .
(٣) الرعد :٤٣.
(٤) القصص: ٥١ ـ ٥٣

« **لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود** » [1] .

ورواه مسلم بلفظ:

« **لو تابعنى عشرة من اليهود ، لم يبق على ظهرها يهودى إلا أسلم** » [2] .

قال ابن حجر: والمراد عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة، وقيل: المعنى لو آمن بى فى الزمن الماضى، كالزمن الذى قبل قدوم النبى ﷺ المدينة أو حال قدومه، والذي يظهر أنهم كانوا حينئذ رؤساء اليهود، ومن عداهم كان تبعا لهم [3] .

ويروى الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيما، فقال رسول الله ﷺ :

« **نحن أولى بموسى منكم** » فأمر بصومه [4].

وفى رواية لهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال : دخل النبى ﷺ ، وإذا أناس من اليهود يعظّمون عاشوراء ويصومونه ، فقال النبى ﷺ :

« **نحن أحق بصومه** » فأمر بصومه [5] .

ويروى الشيخان عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبى ﷺ يسحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبى ﷺ رأسه[6] .

وهذه الأحاديث الصحيحة واضحة الدلالة فى بيان علاقة النبى ﷺ باليهود، حين قدم المدينة، وبعد ذلك حتى ظهروا على حقيقتهم.

إنذار بالعقوبة :

وكما أن القرآن الكريم قد استعمل مع اليهود كثيرا من وسائل الترغيب و الترهيب،

---

(١) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٩٤١) .   (٢) مسلم : ٥٠ صفات المنافقين٣١ (٢٧٩٣)

(٣) فتح البارى : ٧: ٢٧٥ .

(٤) البخارى٦٣مناقب الأنصار (٣٩٤٢) واللفظ له، ومسلم :١٣ ـ الصيام ١٢٧(١١٣٠) .

(٥) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٩٤٢) واللفظ له ، ومسلم : ١٣ ـ الصيام ١٢٩ (١١٣١) .

(٦) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار: (٣٩٤٤) واللفظ له ومسلم: ٤٣ ـ الفضائل.٩٠(٢٣٣٦) .

وهو يدعوهم إلى الإسلام ـ كما أسلفنا ـ فقد استعمل أسلوب الإنذار تهديدا لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغا لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص.. وفى الوقت ذاته هو بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ، وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [١].

إنه نداء لهم بالصفة التى كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين [٢]، وبالسبب الذى كان من شأنه أن يكونوا من المسلمين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾

فهم أوتوا الكتاب، فليس غريبا عليهم هذا الهدى.. والله الذى آتاهم الكتاب هو الذى يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم.. فليس غريبا عليهم كذلك.. وهو مصدق لما معهم..

ولو كان الإيمان بالبينة، أو بالأسباب الظاهرة، لآمنت يهود أول من آمن.. ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح! وكانت لها أحقاد وضغائن! وكانت هى بطبيعتها منحرفة صلبة الرقبة.. كما تعبر عنهم التوراة بأنهم « شعب صلب الرقبة» ومن ثم لم تؤمن. ومن ثم يجيئها التهديد :

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

قال مجاهد: «من قبل أن نطمس وجوها» [٣] يقول: عن صراط الحق «فنردها على أدبارها» : أى فى الضلال.

وقال القاسمى: أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم، وقال العوفى عن ابن عباس: طمسها أن تعمى..

---

(١) النساء: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) فى ظلال القرآن : ٢: ٦٧٧ بتصرف.

(٣) تفسير القاسمى: ٥ : ١٢٨٣ بتصرف.

قال الرازى وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة ؛ لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة :

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

أى: أونفعل بهم أبلغ من ذلك. وهو أن نطردهم عن الإنسانية بالمسخ الكلى، جزاء على اعتدائهم بترك الإيمان. كما أخزينا به أوائلهم أصحاب السبت، جزاء على اعتدائهم على السبت بالحيلة على الاصطياد فمسخناهم قردة « وكان أمر الله مفعولا» أى ما أمر به « مفعولا » أى نافذا كائنا لامحالة .

هذا، وفى الآية تأويل آخر. وهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه. وهو صرفهم عن الحق.، وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة. يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم.

قال ابن كثير: [1] وهذا كما قال بعضهم فى قوله:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ [2].

أى هذا مثل سوء، ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى ..

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا. قال السدى: «فنردها على أدبارها» فنمنعها عن الحق، قال نرجعها كفارا ونردهم قردة. قال أبو زيد: فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز.

قال الرازى [3] : والمقصود على هذا بيان إلقائها فى أنواع الخذلان ، وظلمات الضلالات. ونظيره قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ ﴾ [4].

تحقيق القول فيه أن الإنسان فى مبدء خلقته ألف هذا العالم المحسوس. ثم إنه عند الفكر والعبودية كأنه يسافر من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات..ثم قال:عبد الرحمن

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ٥٠٨.

(٢) يس: ٨-٩ .

(٣) تفسير القاسمى :٥ : ١٢٨٣ بتصرف .

(٤) الأنفال: ٢٤ .

ابن زيد: هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى. وتأول ذلك في إجلاء قريظة والنضير إلى الشام. فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام. كما جاءوا منها. و «طمْسُ الوجوه» على هذا التأويل يحتمل معنيين:

أحدهما : تقبيح صورتهم. يقال طمس الله صورته، كقوله قبح الله وجهه.

والثاني: إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها..

وسواء كان هذا أو ذاك.. فهو التهديد الرعيب الرهيب، الذى يليق بطبيعة يهود الجاسية القاسية الغليظة، كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [(١)].

يقول ابن كثير: [(٢)] يقول تعالى لنبيه ﷺ : « واسألهم » أى واسال هؤلاء الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم !

إن اليهود هنا لا يخالفون الأمر جهرة، [(٣)] ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه؛ لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع ..

ويأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم فى تاريخ أسلافهم.. وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال، ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا، وما جره عليهم جميعا من كتابة الذل عليهم والغضب أبدا.. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبى الأمى فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التى كانت حاضرة البحر ، فهى معروفة للمخاطبين !

فأما ما حدث فقد كان ضروريا لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم

---

(١) الأعراف: ١٦٣ . (٢) تفسير ابن كثير: ٢: ٢٥٧ بتصرف .

(٣) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٣٨٢ بتصرف .

بسبب الذل الذى عاشوا فيه طويلا، ولابد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية، لتعتاد الصمود والثبات.. فضلا عن أن هذا ضرورى لمن يحملون دعوة الله، ويؤهلون لأمانة الخلافة فى الأرض. وقدكان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء.. ثم ظل هو الاختبار الذى لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض.. إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا تتغير فحواه!

ولم يصمد هؤلاء للابتلاء.. فأما كيف وقع لهم هذا، وكيف جعلت الحيتان تحاورهم هذه المحاورة، وتداورهم هذه المداورة.. فهى الخارقة التى تقع بإذن الله عندما يشاء الله.. والذين لا يعلمون ينكرون أن تجرى مشيئة الله بغير مايسمونه هم «قوانين الطبيعة» ! والأمر فى التصور الإسلامى - وفى الواقع - ليس على هذا النحو.. إن الله سبحانه هو الذى خلق هذا الكون، وأودعه القوانين التى يسير عليها بمشيئته الطليقه.. ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين، لا تملك أن تجرى إلا بها.. لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين، كما كانت طليقة.. وهذا مايغفل عنه الذين لا يعلمون.. وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين، فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين.. فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفا لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر.. ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة فى كل مرة تجرى فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة. فهى لا تجرى جريانا آليا لا تدخل لقدر الله فيه.. وهذامع ثباتها فى طريقها ما لم يشأ الله أن تجرى بغير ذلك.. وعلى أساس أن كل ما يقع - سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها - إنما يقع بقدر من الله خاص، فإنه تستوى الخارقة والقانون الثابت فى جريانه بهذا القدر.. ولا آلية فى نظام الكون فى مرة واحدة - كما يظن الذين لا يعلمون! - ولقد بدأوا يدركون هذا فى ربع القرن الأخير [١] .

على أية حال، لقد وقع ذلك لأهل القرية التى كانت حاضرة البحر من بنى إسرائيل.. فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل - على طريقة اليهود - للصيد فى يوم السبت! وما أكثر الحيل عندما يلتوى القلب، وتقل التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص !

---

(١) انظر : المرجع السابق : ١١١٣ - ١١٢١

إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه.. إنما تحرسه القلوب التقية النقية، التى تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هى القانون وتحميه.. وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! مامن قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة ـ كائنا ما كان الإرهاب فيها ـ أن تضع على رأس كل فرد حارسا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته، ما لم تكن خشية الله فى قلوب الناس، ومراقبتهم له فى السر والعلن..

ومن أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التى لا تقوم على حراسة القلوب التقية النقية. وتفشل النظريات والمذاهب التى يضعها البشر للبشر، ولا سلطان فيها من الله.. ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التى تقيمها الدولة لحراسة القوانين وتنفيذها.. وتعجز الملاحقة والمراقبة التى تتابع الأمور من ظواهرها !

وهكذا راح فريق من سكان القرية التى كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت.. ويجىء تعقيب يتضمن تهديدا آخر بعدم المغفرة لجريمة الشرك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قال أبو السعود [١] : كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد ، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ، ببيان استحالة المغفرة بدونه ، فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون فى المغفرة ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[٢] .

والمراد بالشرك : مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً . فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة . وقضى بخلود أصناف الكفرة فى النار . ونزوله فى حق اليهود ، كما قال مقاتل ، وهو الأليق بسياق النظم الكريم ، وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم ، بل يكفى اندراجه فيه قطعاً ، بل لا وجه له أصلا . لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر .

---

(١) تفسير القاسمى : ٥ : ١٢٨٦ بتصرف .

(٢) الأعراف : ١٦٩ .

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك ، ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣ ﴾ (١) .

وعلى أية حال فاليهود فى عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم فى الجزيرة العربية (٢) حافلة بالوثنيات ، منحرفة عن التوحيد .. والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك ـ لمن يشاء ـ ولكنه لا يغفر أن يشرك به ، ولا مغفرة لمن لقيه مشركًا به ، لم يرجع في الدنيا عن شركه !

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد .. فلا يبقى لهم معه أمل فى مغفرة ، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون . مقطوعو الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله ، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا .. وأمامها دلائل التوحيد فى صفحة الكون وفى هداية الرسول ﷺ .. ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية . إنما تفعله وقد فسدت فسادا لا رجعة فيه ! وتلفت فطرتها التى برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم !

بغى وحسد :

وكان من الواجب على هؤلاء اليهود أن يسارعوا إلى تصديق هذا النبى الأمى الذى قامت الأدلة القاطعة على صدقه فيما يبلغه عن ربه ـ كما أسلفنا ـ ولكنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا وحسدًا :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟

---

(١) التوبة : ٣٠ ـ ٣٣ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٢ : ٦٧٨ بتصرف .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1].

ألوهية واحدة .. وإذن فدينونة واحدة[2] .. واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء فى نفوس العباد ولا فى حياتهم خارجًا عن سلطان الله .

ألوهية واحدة .. وإذن فجهة واحدة هى صاحبة الحق فى تعبيد الناس لها ، وفى تطويعهم لأمرها ، وفى إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ، وفى وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها ، وفى إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التى ترضاها ..

ألوهية واحدة .. وإذن فعقيدة واحدة هى التى يرضاها الله من عباده .. عقيدة التوحيد الخالص الناصع .. إسلام الوجه لله وحده :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

والإسلام توحيد الألوهية والقوامة .. بينما أهل الكتاب يخلطون بين الحق والباطل ، ويختلفون فيما بينهم اختلافًا عنيفًا يصل فى أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال .. هنا يبين الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف :

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

إنه ليس اختلافًا عن جهل بحقيقة الأمر . فقد جاءهم العلم القاطع بواحدانية الله ، وتفرد الألوهية . وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية .. ولكنهم اختلفوا « بغيًا بينهم» واعتداءً وظلمًا ، حينما تخلوا عن قسط الحق وعدله الذى تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه .. ومن ثم يجيء التهديد القاصم فى موضعه المناسب :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفراً ، وهدد الكافرين بسرعة الحساب ، كى لا يكون الإمهال ــ إلى أجل ــ مدعاة للجاجة فى الكفر والإنكار والاختلاف .. وكان فصل الخطاب فى الموقف من أهل الكتاب والمشركين جميعًا ، ليحسم الأمر معهم عن بينة ، ويدع أمرهم بعد ذلك لله ، ويمضى فى طريقه الواضح متميزاً متفرداً :

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

---

(1) آل عمران : ١٩ ، ٢٠ .　　(2) المرجع السابق : ١ : ٣٧٩ بتصرف .

قال صاحب الكشاف (١) : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم** ﴾ يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ، ويقتضى حصوله لا محالة ، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم ؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طريق البيان والكشف طريقًا إلا سلكته ، هل فهمتها ؟ ومنه قوله تعالى :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٢) .

بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر ، وفى هذا الاستفهام تعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ؛ لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاند بعد تجلى الحجة ما يضرب أسدادا بينه وبين الإذعان ، وكذلك فى « هل فهمتها » توبيخ بالبلادة ، وفى « فهل أنتم منتهون » توبيخ بالتقاعد عن الانتهاء إلى الحرص على تعاطى المنهى عنه .

حقًا ، إنه لا سبيل إلى مزيد من الإيضاح بعدما تقدم . فإما اعتراف بوحدة الألوهية والقوامة ، وإذن فلابد من الإسلام والاتباع . وإما مماحكة ومداورة ، وإذن فلا توحيد ولا إسلام .

ويبين مصيرهم الذى ينتظرهم وينتظر أمثالهم وفق سنة الله الماضية أبدًا في المكذبين والبغاة الطغاة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣) .

فهذا هو المصير المحتوم : عذاب أليم . لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة ، فهو متوقع هنا وهناك .. وبطلان لأعمالهم فى الدينا والآخرة فى تعبير مصور .. وهكذا أعمال هؤلاء ، حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام !

ونقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١ : ١٤٦ نقلا عن : تفسير الكشاف : ١ : ٢٩٨ .

(٢) المائدة : ٩١ . (٣) آل عمران : ٢١ ، ٢٢ . (٤) الجاثية : ١٦ ، ١٧ .

وتطالعنا حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ، ونحن نقرأ قول الحق جل شأنه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

تطالعنا حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان (٢) ، مع لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن ، وهو ينظر إلى هؤلاء الرسل الكرام على التتابع .. نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .. ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام ، وأنه على دربهم يسير .. إنه يستروح السير فى الطريق ، مهما يجد فيه من نصب ، وحرمان من أعراض كثيرة ، وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله .. الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله ، السائرين على شرعه الثابت، وانتفاء الخلاف والشقاق ، والشعور بالقربى الوثيقة ، التى تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضى ، والماضى بالحاضر ، والسير جملة فى الطريق .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بخاتم النبيين ﷺ هو ما وصى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وتسليماته ، ففيم يتقاتل أهل الكتاب فيما بينهم ؟!

وفيم يتقاتلون مع أتباع خاتم النبيين ؟!

وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟

ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها خاتم النبيين ؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ ؟!

فيقيموا الدين ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ، ويقفوا تحت رايته

---

(١) الشورى : ١٣ ، ١٤ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٣١٤٧ بتصرف .

صفًا ، وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، حتى انتهت إلى خاتم النبيين فى العهد الأخير :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

فهم لم يتفرقوا عن جهل ، ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم .. إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم .. تفرقوا بغياً وحسدا وظلماً للحقيقة ولأنفسهم سواء .. تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية .. تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم .. ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذاً عاجلا ، جزاء بغيهم وظلمهم في هذا التفرق والتفريق .. ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، بإمهالهم إلى أجل مسمى :

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾

فحق الحق ، وبطل الباطل ، وانتهى الأمر فى هذه الحياة الدنيا ..

ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التى ورثت الكتاب بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبى، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ، إذ كانت الخلافات السابقة مثاراً لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

وما هكذا تكون العقيدة .. فالعقيدة هى الصخرة الصلبة التى يقف عليها المؤمن فتميد الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة التى لا تميد . والعقيدة هى النجم الهادى الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشىء ولا لأمر فى نفس صاحبها ، ولا قرار له على جهة ، ولا اطمئنان إلى طريق ، ومن ثم كان موقف أهل الكتاب ــ كما عرفنا ــ من تحريف الكلم عن مواضعه !

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ، ويقودوا من وراءهم من البشر في غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون . وكذلك كان حال أهل الكتاب يوم بعث الله خاتم النبيين ﷺ .

ومن ثم كان هذا التوجيه القرآني :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] .

وتكشف هذه الآية عن حقيقة هذه الرسالة الأخيرة ، فى مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الحاسم الدقيق .. فهى رسالة جاءت لتمضى فى طريقها لا تتأثر بأهواء البشر .. وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة فى الأرض .. وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو فى حقيقته موحد على مدى الرسالات ..

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين فى الله مستنكرًا لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[2] .

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة فلا حجة له ولا سلطان .. ووراء الهزيمة والبطلان الغضب والعذاب الشديد .. وهو الجزاء المناسب على اللجاج بعد استجابة القلوب الخالصة ، والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح ..

هذا والدعوة الإسلامية بعد فى مكة محصورة بين شعابها ، مضطهدة هى وأصحابها .. ولكن حقيقتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة ، وتعلن الربوبية الواحدة ، وتعلن فردية التبعية ، وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل ، وتكل الأمر كله إلى الله .

* * *

---

(١) الشورى : ١٥ . (٢) الشورى : ١٦ .

الفصل الثالث

صور ومعالم

بداية الخطر ـ ترقب وعداء ـ « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ـ « لا إكراه فى الدين » ـ هذا حكم الدين ـ الإكراه على الدين عند غير المسلمين ـ اختيار ـ أول من قدم على النبى من اليهود ـ أسرار هذا القدوم ـ إسلام عبد الله بن سلام ـ « وشهد شاهد » ـ موادعة اليهود ـ بين التوقع والواقع ـ « فاعف عنهم واصفح » ـ شر عاقبة ـ سمات قبيحة ـ « وقالت اليهود يد الله مغلولة » ـ الرد عليهم ـ « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» ـ مفتاح الموقف ـ «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله» ـ افتراء على الله ـ قتلهم الأنبياء ـ تحويل القبلة وسفاهة اليهود ـ الحكمة من تحويل القبلة ـ أولئك هم السفهاء ـ عالمية التوحيد وانغلاق اليهود .

بداية الخطـــر :

نبصر اليهود يعلنون بين الحين والحين ، عن قـرب ظهـور النبى ، ويهـددون بالانتماء إليه (١) ، ويتوعدون مخالفيهم ، من أجل مزيد من السيطرة والإذلال ، واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الآلاف من العرب المحيطين بهم !

ولم يكن الكثيرون من الأحبار يتوقعون أن النبى سيجىء هذه المرة من سلالة أخرى ، غير السلالة اليهودية المعروفة ، وأنه بانتمائه العربى سيشكل خطراً ماحقاً على وجودهم المستغل ، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة ، وبمبادئه العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم وأسرارهم التى يرتزقون منها ، ويضمنون بقاءهم فى المراكز العليا لبنى قومهم !

وما إن حان الموعد ، وحل الأجل المضروب فى التوراة والإنجيل ، ولم يظهر فى اليهود النبى الذى ظنوه منهم ،، وولد محمد ﷺ يحمل علامات نبوته المادية والأدبية ، حتى بدأ اليهود يتخوفون من أن تخطىء ظنونهـم ، وألا تكـون النبوة فيهـم ، ويخشـون أن يصابوا بخسارتين !

وأصبح الطفل الذى سيبعث إلى العالم فى خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التى تتيح لهم اتخاذ أى أسلوب مهما كان دنيئًا ، لوقف كل ما يتهدد مصالحهم ووجودهم ، حتى لو كان هذا الأسلوب القتل والغيلة !

ترقب وعداء :

ونزل الوحى ، وحمل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لواء الدعوة ، وخاض جهاداً قاسيا ضد الوثنية التى استخدمت كل أسلوب لوقف نشاطه ووأد حركته .. ورغم قلة الروايات وانعدامها أحيانًا ، فإننا نستطيع أن نجزم بأن اليهود وقفوا طيلة الصراع المكي الذى دام ثلاثة عشر عامًا وراء قريش ، يتبادلون معها الوفود ، ويتصلون بها سراً من أجل أن يشددوا قبضتهم على النبى ، وأن يشلوا حركته قبل أن يشتد ساعدها ، وتغدو قادرة على اكتساح كل ما يقف فى طريقها ، ليصدها عن هدفها المحتوم ، وثنيًا كان أم يهوديًا !

ويذكر إسرائيل ولفنسون (٢) أن المراجع العربية لم تشر إلى حركات يهود المدينة

---

(١) دراسة فى السيرة : ٣٢١ ـ ٣٢٣ بتصرف .

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ١٠٦ ـ ١٠٨ .

ونياتهم إزاء بيعة العقبة الكبرى ، كأن الدعوة الإسلامية لم تصل إليهم ، وكأنهم لم يقفوا على شيء من أعمال البطون هناك !

ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة ؛ لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، خصوصاً إذا لا حظنا اتجاه الدعوة الإسلامية صوب المدينة ، وميل زعماء الخزرج إلى الاتصال بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ .

ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد ، مما جعل زعماء بنى النضير وقريظة ـ كما سيأتى ـ يراقبون حركاتهم جميعًا .

ونعلم ـ كذلك ـ أن الإسلام لم ينشر خفية فى المدينة ، وكيف أن مصعب بن عمير رضى الله عنه كان يدعو الناس إلى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون .

ونعلم ـ أيضًا ـ أن عدداً من تجار اليهود كان يشترك فى مواسم الحج .. ومن ثم يبعد أن يجهل اليهود تلك الشئون !

والذى يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بنى النضير وبين الرسول ـ كما سيأتى ـ يرى أن ذلك اليهودى كان يقاوم الحركة الإسلامية منذ وصلت أرض المدينة عن طريق الترقب ، والعداء الذى استفحل أمره بين الجبهتين ، وذلك يؤيد ما نقول .

« فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به » :

ونبصر القرآن الكريم يواجه بنى إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء .. وما كان من سوء صنيعهم معهم ، كلما جاءوهم بالحق ، الذى لا يخضع للأهواء :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا
مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟
بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ

﴿ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

جاء في المنار [٢] : عهد في سيرة البشر أن الأمة توعظ وتنذر ، فتتعظ وتتدبر ، فإذا طال عليها الأمد بعد النذير تفسد القلوب ، ويذهب أثر الموعظة من الصدور ، وتفسق عن أمر ربها ، وتنسى ما لم تعمل به مما أنذرت به ، أو تحرفه عن موضعه بضروب من التأويل ، وزخرف القال والقيل ، ولقد يكون للمتأخر منها بعض العذر ، لجهله بما فعل المتقدم ، وأخذه ما يؤثر عنه بالتسليم ، لكمال الثقة وحسن الظن .

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية في قوله :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [٣] .

يقول ابن كثير [٤] : يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه .. ويروى مسلم وغيره أن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية :

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ .

إلا أربع سنين [٥] .

ونهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد ، بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد : « وأكثرهم فاسقون » أى فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة ، كما قال تعالى :

---

(١) البقرة : ٨٧ ـ ٩١ . (٢) تفسير المنار : ١ : ٣٧٦ بتصرف .
(٣) الحديد : ١٦ . (٤) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١٠ بتصرف .
(٥) مسلم : ٥٤ ـ التفسير ٢٤ (٣٠٢٧) وانظر : المرجع السابق .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١) .

أى فسدت قلوبهم فقست ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا ما نهوا عنه ، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

قال القرطبى (٢) : قال ابن مسعود : إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، فاخترعوا كتابًا من عند أنفسهم ، استحلّته أنفسهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم ، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ثم قالوا : اعرضوا هذا الكتاب على بنى إسرائيل ، فإذا تابعوكم فاتركوهم وإلا فاقتلوهم ، ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم ، وقالوا : إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد ، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد ، فأرسلوا إليه ، فكتب كتاب الله فى ورقة وجعلها فى عنقه ، ثم لبس عليه ثيابه ، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم ، وقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فضرب بيده على صدره ، وقال : آمنت بهذا ، يعنى المعلَّق على صدره ، فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة ، وخير مللهم أصحاب ذى القرْن ، قال عبد الله : ومن يعش منكم فسيرى منكرًا ، وبحسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره .

رواه ابن أبى حاتم (٣) وابن جرير بألفاظ متقاربة (٤) .

ونبصر عتابًا مؤثرًا من المولى الكريم الرحيم (٥) ، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها الرحمن من فضله ، فبعث فيها خاتم النبيين رحمة مهداة ، ونعمة مسداة ، يدعوها إلى الإيمان بالله عز وجل ، ونزّل عليه الآيات البينات ، ليخرجها من الظلمات إلى النور ، وأراها من آياته فى الكون والخلق ما يبصر ويحذر ..

نبصر عتابًا فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره ، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة

---

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) تفسير القرطبى : ١٧ : ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧ : ٢٢٩ .

(٥) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٤٨٩ بتصرف .

والاستسلام ، مع رائحة التنديد والاستبطاء فى السؤال ، ونحن نقرأ :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

ونبصر إلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذيراً من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبياناً لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهى إليه من القسوة بعد اللين ، حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق ، ونحن نقرأ :

﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشرى سريع التقلب ، سريع النسيان .. وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع ، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعتم ! فلابد من تذكير هذا القلب ، حتى يذكر ويخشع ، ويدرك ويخضع ، ولابد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ، ولابد من اليقظة الدائمة كى لا يصيببه التبلد والقساوة .

ولهذا أرسل الحق رسله ، بعضهم فى إثر بعض ، حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا ..

ولا يعرف التاريخ شعباً أرسل الله فيه الرسل تترى كشعب بنى إسرائيل [(١)] .

لذلك كانوا بمعزل عن صحة العذر بطول الأمد على الإنذار ، وفى ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار ، ولهذا قال تعالى بعد تولى اليهود عن كتاب الله إلى تشريع أحبارهم ، وإقامة الحجة عليهم ، ونقضهم للميثاق ، وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، والوعيد على نقض الميثاق ، وشراء الحياة الدنيا بالآخرة :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾

فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبى مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون ، كأنه يقول :

اعلموا يا بنى إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد فى

---

(١) تفسير المنار : ١ : ٣٧٦ بتصرف .

تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع ، وكان فى ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين ، فإن ذلك لا يتناولكم ، فإن الرسل قد جاءتكم تترى ، ثم كان من أمركم معهم ما كان !

لقد كانت حجة بنى إسرائيل فى إعراضهم عن الإسلام (١) ، وإبائهم الدخول فيه ، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم ، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم .. فهنا يفضحهم القرآن الكريم ، ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم، ويثبت أنهم هم كلما واجهوا الحق الذى لا يخضع لأهوائهم !

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام ـ كما عرفنا ـ وقد آتاه الله الكتاب .. ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى ، يقفو بعضها بعضا ، وكان آخرهم عيسى ابن مريم ، وقد آتاه الله المعجزات وأيده بروح القدس ، فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ، ولآخرهم عيسى عليه السلام ؟!

كان هذا الذى يستنكره عليهم ، والذى لا يملكون هم إنكاره ، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

كان المعهود فى التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ قبل التوبيخ عليها ، ولكن طواها فى الخطاب وأدمجها فى الاستفهام ، لتفاجئ النفوس بقوة التشنيع والتقبيح ، وتبرز لها فى ثوب الإنكار والتوبيخ ، وفى ذلك الإيمان إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لا يخفى خبرها ، ولا تغيب عن الإنكار صورها ، فلا ينبغى الإلماع إليها إلا فى سياق تقريع مجترحيها ، وهذا من إيجاز القرآن ، الذى لا يعرج إليه فكر الإنسان ، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التى تدل على الحال ، لاستحضار تلك الصورة الفظيعة ، وتمثيلها للسامع حتى يتصورها في الخيال ، وإن مرت عليها القرون والأحوال ؛ لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها ، ودماء لا تطير رغوتها ، وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة ؛ لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به ، فيكون له من التأثير ما يناسبه .. وقد قتلوا من الأنبياء كثيرين ..

وفى هذه الآية حجتان للنبى ﷺ :

حجة على بنى إسرائيل ..

---

(١) انظر فى ظلال القرآن : ١ : ٨٨ .

وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به ، وإجابتهم دعوته ، وبيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ، ومما عرف من شنشنتهم .

وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الإيمان به ، والاهتداء بكتابه ، بعد تقرير الدعوة ، وإقامة الحجة ، فقال :

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ .

والمراد هنا أننا لا نعقل قولك ، ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك ، فهو بمعنى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ (١) .

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال :

﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ .

إن الأسلوب هنا يتناسب وهذا الموقف (٢) ، ويتحول ـ في بعض المواقع ـ إلى صواعق وحمم .. إنه يجبههم جبها شديداً بما قالوا وما فعلوا ، ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم ، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق ، وأثرتهم البغيضة ، وعزلتهم النافرة ، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الحق ، وحسدهم أن يؤتى الله أحداً من فضله .. جزاء موقفهم الجحودى المنكر من الرسالة والرسول ﷺ .. ومن ثم قالوا : إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة ، ولا تستمع إلى داعية .. ولا تصل إليها كلماته .. قالوا هذا تيئيساً للرسول الحبيب المحبوب ﷺ وللمسلمين ، من دعوتهم إلى الدين القيم (٣) ، أو تعليلا لعدم استجابتهم .. وكان الرد عليهم أن الله لعنهم وطردهم وأبعدهم عن الهدى ، بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سببا فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .

هذا هو معنى اللعن ، وقد ذكرت معه علته ، ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى

---

(١) فصلت : ٥ .

(٢) فى ظلال القرآن : ١ : ٨٩ بتصرف .

(٣) تفسير المنار : ١ : ٣٧٨ بتصرف .

الأسباب والمسببات ، وأن الله لم يظلمهم بهذا ، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر ، والعصيان الذى يجر إلى التمادى فى العصيان ، كما هى السنة فى أخلاق الإنسان..

ولما ذكر اللعن معللاً بالكفر الذى هو نتيجة أعمالهم السابقة فى أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم ، استدرك فقال :

﴿ **فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ .

وإنما القلة فى الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة ، وبالنسبة إلى اليقين فى الإيمان ، وتحكيمه فى الفكر والوجدان ..

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة ، وكما تعطيه ظواهر الألفاظ ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلا ، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هى المحركة لإرادتهم في أعمالهم ، وإنما كان الذى يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فالإيمان إنما كان عندهم قولاً باللسان ، ليس له فى الجنان مكان ، وكان رسما يلوح فى الخيال ، تكذبه الأعمال ، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال ، وهذا لا قيمة له عند الله تعالى .. ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والأساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلا ما يعتبرون ويتذكرون !

وقد كان كفرهم قبيحًا ؛ لأنهم كفروا بالنبى الذى ارتقبوه ، واستفتحوا به على الكافرين ، وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

روى ابن جرير وغيره (١) عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا

---

(١) تفسير الطبرى : ١ : ٤١٠ وما بعدها ، وتفسير ابن كثير : ١ : ١٢٤ ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٣ : ٢٨٢ وما بعدها .

ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بنى سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله جل ثناؤه فى ذلك من قولهم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وقال أيضًا : يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ، يعنى بذلك أهل الكتاب ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه ..

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبًا عندنا ، حتى يعذب المشركين ويقتلهم . فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فقال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته .. ومن ثم يصب عليهم اللعنة ، ويصمهم بالكفر :

﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

ويفضح السبب الخفى لهذا الموقف الشائن الذى وقفوه ، بعد أن يقرر خسارة الصفقة التى اختاروها :

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

جاء في المنار (١) : أى بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله مصدقًا لما معهم ، كما ينتظرون .. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « اشتروا » هنا بمعنى باعوا ،

---

(١) تفسير المنار : ١ : ٣٨١ بتصرف .

أى أنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغيًا وحسدًا للنبى ، وحبًا فى الرياسة واعتزازًا بالجنسية ، وبماكان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة في المحافظة عليها ، فهذا كله يعد ثمنًا لأنفسهم التى خسروها بالكفر ، حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع .

وذكر ابن جرير وجهًا آخر (١) ، وهو أن « اشتروا » هنا بمعنى ابتاعوا ..

وعلى كل فبئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا (٢) .. لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم ! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما ، يكثر أو يقل ، أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ، ولكن هذا هو الواقع .. لقد خسر اليهود أنفسهم فى الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ! ولقد خسروا أنفسهم فى الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين ! وبماذا خرجوا فى النهاية ؟ خرجوا بالكفر: هو وحده الذى خرجوا به وأخذوه !

والذى حملهم على هذا كله هو حسدهم لخاتم النبيين ﷺ أن يختاره الله للرسالة التى انتظروها فيهم ، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. وكان هذا بغيًا منهم وظلما ـ كما أسلفنا ـ فعادوا من هذا البغى وذلك الظلم بغضب على غضب ، وهناك ينتظرهم عذاب مهين ، جزاء الاستكبار والحسد والبغى الذميم !

وهذه الطبيعة التى تبدو هنا فى يهود هى الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد ، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ، التى تربط البشرية جميعًا .. وهكذا شأن اليهود فى كل زمان ومكان !

إنهم يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ، ويتربصون بالبشرية الدوائر ، ويكنون للناس البغضاء ، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن ، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتنا يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض ، وحروبا يثيرونها ليأخذوا من ورائها المغانم ، وهلاكا يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس .. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة :

﴿ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ

(١) تفسير الطبرى : ١ : ٤١٥ . (٢) فى ظلال القرآن : ١ : ٩٠ بتصرف .

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

يقول ابن جرير [1] : فرجعت اليهود من بنى إسرائيل بعد الذى كانوا عليه من الاستنصار بمحمد ﷺ ، والاستفتاح به ، وبعد الذى كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبى مبعوث ، مرتدين على أعقابهم ، حين بعثه الله نبيًا مرسلا ، فباءوا بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بعث ، وجحودهم نبوته ، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذى يجدون صفته فى كتابهم عنادًا منهم له وبغيًا وحسدًا له وللعرب « على غضب » سالف ، كان من الله عليهم قبل ذلك ، سابق غضبه الثانى ، لكفرهم الذى كان قبل ذلك بعيسى ابن مريم ، أو لعبادتهم العجل ، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت يستحقون بها الغضب من الله .

ولما اعتذروا فى عصر التنزيل عن عدم الإيمان بأن قلوبهم غلف لم تفهم الدعوة [2]، ولم تعقل الخطاب ، رد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقى فى ترك الإيمان ، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان . ثم ذكر اعتذارا آخر لهم مقرونًا بالرد والإبطال ، وإقامة الحجة عليهم به ، فقال :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

وصيغة الدعوة تشعر بوجود الإيمان بما أنزل الله تعالى ؛ لأنه هو الذى أنزله .. وتقييد الخضوع لوحى الله بكونه لابد أن يكون منزلا على شخص بعينه من شعب كذا بعينه تحكم على الله تعالى ، وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه .. وإيراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيدًا بقيد : « نؤمن بما أنزل علينا » يشعر بقوة حجة الدعوة ، ووهن ما بنى عليه الجواب من الشبهة .. ثم صرح بالحقيقة ، وهى أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بألسنتهم ﴿**ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقًا لما معهم**﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل ، وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان ، فلم يبق إلا إلزامهم بالحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه ، ليعلم أنهم يتبعون أهواءهم ، ويحكمون شهواتهم ﴿ **قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ : ٤١٦ بتصرف .
(٢) تفسير المنار : ١ : ٣٨٣ بتصرف .

وما لهم وللحق ؟ [1] .

وما لهم أن يكون مصدقًا لما معهم ! ماداموا لم يستأثروا هم به ؟

إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم ! لا ، بل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به ـ كما سبق ـ ويأتى الأمر للرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة ، كشفا لموقفهم ، وفضحًا لدعواهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

لم تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقًا تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟ !

لا ، بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى نبيكم ومنقذكم :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [2] .

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات ، وفى حياة موسى نفسه ، كان من وحى الإيمان ؟ !

وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ !

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة .. بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية .. يخاطب بنى إسرائيل بما كان منهم ، ويلتفت إلى المؤمنين وإلى الناس جميعًا ، فيطلعهم على ما كان منهم .. ثم يوجه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذى يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح :

---

(١) فى ظلال القرآن : ١ : ٩١ بتصرف .

(٢) البقرة : ٩٢ .　　　(٣) البقرة : ٩٣ .

﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين :

﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ .

﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ .

إنهم قالوا بأفواههم سمعنا . وقالوا بأعمالهم عصينا .

والواقع العملى هو الذى يمنح القول اللفظى دلالته . وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق !

وهذا التصوير الحى للواقع يومئ إلى مبدأ كلى من مبادئ الإسلام : إنه لا قيمة لقول بلا عمل . إن العمل هو المعتبر . أو هى الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة ، وهى مناط الحكم والتقدير .

فأما الصورة الغليظة التى يرسمها :

﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل ﴾ .

فهى صورة فريدة .. لقد أشربوا ! أشربوا ماذا ؟ أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟ أشربوه فى قلوبهم !

ويظل الخيال الشاخص يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة ، وتلك الصورة الساخرة الهازئة : صورة العجل يدخل فى القلوب إدخالا ، ويحشر فيها حشرا ، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهنى الذى جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه ، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل ، حتى لكأنهم أشربوه إشرابًا فى القلوب !

هنا تبدو قيمة التعبير القرآنى المصور بالقياس إلى التعبير الذهنى المفسر ..

« لا إكراه فى الدين » :

ومعلوم أن الإسلام عقيدة سلام .. ويدعونا ـ بادئ ذى بدء ـ أن نبر الذين لم يقاتلونا فى الدين ، ولم يخرجونا من ديارنا ، ونقسط إليهم :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ

﴿ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1] .

وهذه القاعدة في معاملة غير المسلمين هى التى تمثل مفهوم هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون فى تكوينه اللدنى ، وتقديره الأزلى ، من وراء كل اختلاف وتنويع [2] .

وهذه القاعدة فى معاملة غير المسلمين هى أساس الشريعة في العلاقات الدولية ، التى تجعل حالة المسلم هكذا بينه وبين الناس جميعاً ، وهى الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء وضرورة رده ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهى تهديد بالاعتداء ، أو الوقوف بالقوة فى وجه حرية الدعوة ، وحرية الاعتقاد .. وهو كذلك اعتداء ، وفيما عدا هذا فهى السلم والمودة ، والبر والعدل للناس أجمعين ..

وهذه القاعدة فى معاملة غير المسلمين هى التى تمثل التصور الإسلامى ، الذى يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هى قضية هذه العقيدة ، دون غيرها .. ويجعل القيمة التى يضن بها المؤمن أن تستباح ، ويقاتل دونها ، هى قضية العقيدة وحدها ، فليس بين المسلمين وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون ، إلا حرية هذه الدعوة ، وحرية هذا الاعتقاد ، وتحقيق منهج الله فى الأرض ، وإعلاء دين الله [3] .

لقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشرى بكل قواه وطاقاته .. يخاطب العقل المفكر ، والبداهة الناطقة .. ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة .. يخاطب الكيان البشرى كله .. والإدراك البشرى بكل جوانبه :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[4] .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٥٤٤ بتصرف .

(٣) المرجع السابق : ١ : ٢٩١ بتصرف .

(٤) البقرة : ٢٥٦ .

أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١) .

وهكذا يتجلى تكريم الله للإنسان، ويتجلى احترام إرادته وفكره ومشاعره، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ..

وهذه هى أخص خصائص التحرر الإنسانى .. التحرر الذى تنكره على الإنسان فى القرن العشرين مذاهب متعسفة ، ونظم مذلة !

إن هذه الحرية هى مقدمة حقوق الإنسان التى يثبت له بها وصف إنسان ..

والإسلام ـ وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإسلامى بلا مراء ـ هو الذى ينادى بأن لا إكراه فى الدين ، وهو الذى يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهى تفرض فرضاً بسلطان الدولة ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ؟ !

و « لا إكراه فى الدين » يرد فى صورة النفى المطلق ، نفى الجنس كما يقول النحويون .. أى نفى جنس الإكراه . نفى كونه ابتداء . فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع .. وليس مجرد نهى عن مزاولته .. والنهى فى صورة النفى ـ والنفى للجنس ـ أعمق إيقاعاً وآكد دلالة .

ولا يزيد السياق عن أن يلمس الضمير البشرى لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى ، وتهديه إلى الطريق ، وتبين حقيقة الإيمان ، وأنه هو الرشد الذى تتوخاه النفوس القويمة ، وتحرص عليه ، وأن الكفر هو الغى الذى تنفر منه هذه النفوس الصالحة ..

ومعنى الآية كما يقول ابن كثير (٢) ـ لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلى دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً ، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عاماً .

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال (٣) : كانت المرأة تكون مقلاتا ، فتجعل على

---

(١) الكهف : ٢٩ ـ ٣١ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١ : ٣١٠ وما بعدها .
(٣) تفسير الطبرى : ٣ : ١٤ .

نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى ذكره :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

ورواه أبو داود والنسائي جميعًا عن بندار [1] به ، ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه ، ورواه ابن أبي حاتم ، وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به ، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير ، والشعبي ، والحسن البصري وغيرهم أنها نزلت في ذلك .

وتعددت الروايات في سبب النزول .

هذا حكم الدين :

ويقول صاحب المنار [2] : هذا حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه ــ وفيهم من يظن أنه من أوليائه ــ أنه قام بالسيف والقوة ، فكان يعرض على الناس والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه ! فهل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الإسلام في مكة أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفيًا ، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من العذاب ، ولا يجدون رادعا ، حتى اضطر النبي وأصحابه إلى الهجرة ؟

أم يقولون إن ذلك الإكراه وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام ، وهذه الآية قد نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فإن غزوة بني النضير كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة ، وقال البخاري : إنها كانت قبل غزوة أحد التي لا خلاف في أنها كانت في شوال سنة ثلاث ــ كما سيأتي تحقيق ذلك ــ وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب .. نقض بنو النضير عهد النبي ﷺ ، فكادوا له ، وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهودين على الإسلام ، ومنعهم من الخروج مع اليهود . فذلك أول يوم خطر فيه على بال بعض المسلمين الإكراه على الإسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ٣١٠ .

(٢) تفسير المنار : ٣ : ٣٦ وما بعدها بتصرف .

الإكراه على الدين عند غير المسلمين :

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى : كان معهوداً عند بعض الملل ـ لا سيما النصارى ـ حمل الناس على الدخول فى دينهم بالإكراه ، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين ؛ لأن الإيمان هو أصل الدين ، وجوهره عبارة عن إذعان النفس ، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه ، وإنما يكون بالبيان والبرهان .

قلت : والشواهد على ذلك كثيرة ـ فوق ما سبق ـ تفوق الحصر والعد ..

اختيـــار :

وقال تعالى بعد نفى الإكراه :

﴿ **قد تبين الرشد من الغى** ﴾ .

أى قد ظهر أن فى هذا الدين الرشد والهدى ، والفلاح والسير فى الجادة على نور ، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غى وضلال :

﴿ **فمن يكفر بالطاغوت** ﴾ .

وهو ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ، ورئيس يقلد ، وهو يتبع :

﴿ **ويؤمن بالله** ﴾ .

فلا يعبد إلا إياه ، ولا يرجو غيره ، ولا يخشى سواه ، يرجوه ويخشاه لذاته ، وبما سنه من الأسباب والسنن فى عباده :

﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ .

أقول : أى فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرى النجاة ، وأثبت أسباب الحياة ، أو فقد اعتصم بأوثق العرى ، وبالغ فى التمسك بها .

وقال الشيخ محمد عبده : الاستمساك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم ، الذى لا يضل سالكه ، كما أن المتعلق بعروة هى أوثق العرى لا يقع ولا يتفلت .

ثم قال صاحب المنار : ومما خطر لى عند الكتابة الآن : أن عروة الإيمان إذا كانت لا تنقطع بالمستمسك بها ، فهو لا يخشى عليه الهلكة إلا إذا كان هو الذى تركها . فإذا

كان الإيمان بالله وما يتبعه من الآثار فى صفات صاحبه وأعماله من أسباب الثبات والاستقرار فى الوجود ؛ لأنه هو الحق والخير الموافق لمصالح العالم ، فلا شك أن شدة التمسك به هى العصمة من الهلاك والسبب الأقوى للثبات والاستقرار فى هذه الحياة الدنيا وللبقاء الأبدى فى الحياة الأخرى ..

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

ويؤيدهما الآيات الكثيرة الناطقة بأن الدين هداية اختيارية للناس .. مؤيدة بالآيات والبينات ...

قلت : ونجد أنفسنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية ، هى أن الإيمان بالله تعالى عروة وثيقة لا تنفصم أبدا ..

متينة لا تنقطع أبدا ..

والذى يمسك بها يمضى على هدى ، ويسلك طريق النجاة ..

لا يرتطم ولا يتخلف ، ولا تتفرق به السبل ، ولا يذهب به الشرود والضلال ..

وتتوارد الآيات والأحاديث .. لتصوير حال المؤمنين ومآلهم .. وحال الكافرين ومآلهم .. فضلا عن استجاشة دوافع الفطرة التى فطر الله الناس عليها .. وأن الدين القيم مع أنه لا إكراه فيه هو دين هذه الفطرة .. مما يطول الحديث فيه ويطول ..

أول من قدم على النبى من اليهود :

قال ابن حجر[2] : ذكر ابن عائذ من طريق عروة أن أول من أتاه منهم أبو ياسر بن أخطب أخو حيى بن أخطب ، فسمع منه ، فلما رجع قال لقومه :

أطيعونى ، فإن هذا النبى الذى كنا ننتظر ، فعصاه أخوه ، وكان مطاعًا فيهم ، فاستحوذ عليه الشيطان ، فأطاعوه على ما قال .

وروى أبو سعيد فى شرف المصطفى من طريق سعيد بن جبير : جاء ميمون بن يامين ،

---

(١) يونس : ٩٩ .　　(٢) فتح البارى : ٧ : ٢٧٥ .

وكان رأس اليهود إلى رسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! ابعث إليهم فاجعلنى حكما ، فإنهم يرجعون إلىَّ ، فأدخله داخلا ، ثم أرسل إليهم ، فأتوه فخاطبوه ، فقال : اختاروا رجلا يكون حكما بينى وبينكم ، قالوا : قد رضينا ميمون بن يامين ، فقال : اخرج إليهم ، فقال : أشهد أنه رسول الله ، فأبوا أن يصدقوه ..

ثم قال : وروى ابن إسحاق عن الزهرى : سمعت رجلا من مزينة يحدّث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المدراس ، حين قدم النبى ﷺ المدينة ، فقالوا : غدا انطلقوا إلى هذا الرجل فاسألوه عن حد الزانى . فذكر الحديث .

أسرار هذا القدوم :

لقد قدموا لأن الهجرة غيرت مجرى الحياة فى مستقبل أعداء الرسالة الخالدة ، حيث انتشر الإسلام ، ولم يبق إلا من أدركته سن اليأس العقلى [1] ، ويبس جلده على شركها ووثنيتها ، فأصبح كالشَّنِّ المخرّق ، وارتد بعد علم إلى جهالة لا تعقل ، لا يدرى ما يقول ، ولا يقول ما يعقل ، فكان مع أمثاله أسطورة أثرية تمثل تفاهة الجهالة ، وحماقة الضلالة ، فى جانب منهار من المجتمع المدنى ، الذى يعيش فيه شراذم اليهود الذين شرقوا بالمجتمع المسلم الذى يبصرونه ، وجلهم شراذم ، إلا من رحم ، فيتميز هؤلاء الشراذم غيظا ، وينفطرون حقدا ، ويتحرَّقون حنقا ، ويتهامسون بما ينتظرهم من مستقبل مظلم ، ويقرؤون فى لوح الغيب مستقبل المجتمع المسلم مضيئًا مشرقًا ، سيّاحا سروبا ، ويحسون شدة الخناق عليهم ، ويشعرون بما ينتظر الأوس والخزرج من سيادة فى مدينتهم ، وقد كانوا من قبل تابعين لهم ، يعظِّمونهم ويعرفون لهم فضلهم عليهم بالعلم والمعرفة لأنهم أهل كتاب ، ويعرفون لهم امتيازهم عليهم فى الثراء وكثرة الأموال ..

وإذا علم الذين آمنوا من الأوس والخزرج من العلم الإلهى ، وعرفوا من المعرفة الربانية ما يقيمون به صرح حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فماذا بقى لليهود عليهم من سلطان ؟

لا شىء ، لا ، بل إن اليهود أصبحوا يعيشون فى قلق بالغ ، واضطراب نفسى ، يخشون أن تدور عليهم دائرة السوء ، فيكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين ، وطالبين خضعا بعد أن كانوا أعزة مطلوبين ، وسائلين مستجهلين بعد أن كانوا علماء مسئولين ،

---

(١) محمد رسول الله : ٣ : ٧٧ وما بعدها بتصرف .

ومحتاجين عالة بعد أن كانوا سادة عائلين ، بل يخافون أن تنقلب عليهم الحياة فى تصاريفها كلها ، فيصبحوا سوقة خدمة بعد أن كانوا قادة مخدومين ، فكيف المخرج من هذا المأزق الذى أدخلهم في مضايقة الحقد الأسود ، والحسد اللعين ؟ !

وإلى أين يكون المهرب ، وقد استحكمت حول تراقيهم حلقات الذل والهوان ؟ !

ولا سيما وقد قدم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على أصحابه ، وأخذ بيده زمام مجتمعه المسلم ، ينميه ويقويه ويرشده .

وها هو ذا المجتمع المسلم يزداد كل يوم عدداً وقوة ونظاماً ، يقيم حياته على أساس من الخير والحق ، والهدى والرشاد ، والحب والعزة ، والعلم والمعرفة ، واستقلال الرأى وكرامة الفرد والجماعة .

وها هى ذى قريش بهيلها وهيلمانها ، وعتوها واستكبارها ، وفجور ملئها تنتفض فرقًا ، وتتزايل مفاصلها رعبا من الرسول وأصحابه الذين ألقوا إليه مقاليد أمورهم ، وسلموا له زمام طاعتهم فى الشدة والرخاء ، يحاربون من يحارب ويسالمون من يسالم وقد عاهدوه على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وذراريهم ، ويفدون الدعوة بكل ما يملكون ، ولو أتى على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ..

لا ، ليس هذا فقط مما يتوجس منه اليهود خيفة ، وتتطاير منه عقولهم رعبا ، بل الخوف كل الخوف أن يجتذب الرسول ﷺ إلى رحاب دعوته ، عباهلة اليهود وساداتهم فى العلم والمعرفة ، فيؤمنوا برسالته ، ويصدقوه فى دعوته ، وهذا ما فعله عبد الله بن سلام : خيرهم وابن خيرهم ، وأفضلهم وابن أفضلهم ، على حد تعبيرهم هم ، وفى رواية سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، كما فعله غيره .

إسلام عبد الله بن سلام :

يروى البخارى عن أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء ، فقال : إنى سائلك عن ثلاث ، لا يعلمهن إلا نبى :

ما أول أشراط الساعة ؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟

قال : « أخبرني به جبريل آنفًا » .

قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال :

« أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ! قال : يا رسول الله ! إن اليهود قوم بُهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى ، فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ :

« أىُّ رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ » .

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال النبى ﷺ :

« أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ » .

قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ! وأن محمدًا رسول الله ! قالوا : شرّنا وابن شرنا وتنقَّصوه ، قال : هذا كنت أخاف يا رسول الله [١] ! .

وفى رواية جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىَّ ما ليس فى فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

« يا معشر اليهود ، ويلكم ، اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا » .

قالوا : ما نعلمه ـ قالوا للنبى ﷺ ، قالها ثلاث مرار ـ قال :

« فأىِّ رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ »

قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال :

« أفرأيتم إن أسلم » .

---

(١) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار : (٣٩٣٨) .

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال :

« أفرأيتم إن أسلم ؟ »

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال :

« أفرأيتم إن أسلم ؟ » .

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال :

« يا بن سلام ، أُخْرُج عليهم » .

فخرج فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ! فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ (١) .

وهذا يبين طبيعة اليهود ، ويبين افتراء اليهود ، ويبين أصالة الحرية ومكانتها فى الدعوة الإسلامية ، وأنه لا إكراه فى الدين ، وأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يتجه إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام تجاه الذين لا يدينون بالإسلام ، ويبين مدى استعداد النفوس الصالحة للدخول فى الدين القيم ..

« وشـهد شـاهـد » :

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

وهذا الأسلوب يراد به زعزعة الإصرار والعناد عند المشركين ، وإثارة التخوف فى نفوسهم :، والتحرج من المضى في التكذيب ، ليواجه شكوك القلب البشرى وانحرافاته، ويأخذ عليها المسالك ويذكرها بشاهد من بنى إسرائيل ، فيما يرويه الشيخان عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت :

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ (٣) .

---

(١) المرجع السابق : (٣٩١١) . (٢) الأحقاف : ١٠ .

(٣) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار : (٣٨١٢) واللفظ له ، ومسلم : ٤٤ فضائل الصحابة ١٤٧ (٢٤٨٣) .

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه ، فتقرأ فى أساريره آيات الطهر وسمات الصدق ، وقد ذهب عبد الله بن سلام ـ كما عرفنا ـ يستطلع أخبار الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فنظر إليه يحاول استكشاف هذه الآيات، وتلك السمات، فكان أول من اطمأن إليه بعد التثبت من أحواله أنه ليس بكاذب، وأن الملامح العقلية والخلقية لشخص ما لا تعرف بنظرة خاطفة، ولكن الطابع الموسوم المرسوم، الذى يضفى على الروح الكبير، كثيرا ما يكون عنوانا صادقا على ما وراءه!

موادعة اليهود :

وقد تداول الكاتبون ذكر الوثيقة المشهورة فى موادعة اليهود الذين كانوا فى المدينة، وهى من رواية ابن إسحاق بدون إسناد، وأوردها علماء السير، ونقلها صاحب مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة من عدة مخطوطات، بدون إسناد كذلك، وقال صاحب عيون الأثر عقب ذكر النص: هكذا ذكره ابن إسحاق، وقد ذكره ابن أبى خيثمة فأسنده، وفيه أن رسول الله ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه.

وقد آليت على نفسى فى هذه الدراسات أن ألتزم بالروايات التى تتفق مع أصول التحديث رواية ودراية، وإن كان بعضها قد ثبت فى روايات صحيحة ـ كما سيأتى ـ إن شاء الله تعالى(١) .

بين التوقع والواقع :

لقد كان اليهود يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق القبائل العربية قبائل متناحرة، فلما دخل العرب فى الإسلام، وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى، وتتابعت الأيام تؤكد أن الإسلام يصنع أمة.. استشعر اليهود القلق وساورتهم الهموم، وشرعوا يفكرون بجد أكثر من ذى قبل فى الكيد لهذا الدين، والتربص بأتباعه..

ثم إن اليهود فى المدينة يكونون البيئة التى تتوافر فيها سوآت التدين المصنوع، والاحتراف السمج!

وأبرز خلال هذه البيئات: الحقد والنفاق، والتمسك بالقشور، والولع بالجدل من وراء ذلك قلوب خربة، ونفوس معوجة!

---

(١) انظر تهذيب سيرة ابن هشام: ١: ١٢٧ ـ ١٣٠، والبداية : ٣: ٢٢٤ ـ ٢٢٦، ومجموعة الوثائق: ٤٩ ـ ٤٧، وعيون الأثر: ١ : ١٩٧ ـ ١٩٨.

والنفاق سلاح خبيث، صنعه اليهود فى مصانع إجرامهم، ليتقوا به مواجهة المجتمع المسلم بأنفسهم، وليجعلوا من ربائبهم المنافقين دريئة يدفعون بها وطأة المسلمين.

والمنافقون هم الأداة الطيعة فى أيدى اليهود وتفكيرهم، ولكن هؤلاء المنافقين كانوا مقهورين أذلة، لا يعيشون إلا فى الظلام، شعارهم الكذب، ودثارهم الغدر والخيانة، لا يخرجون من فضيحة حتى تظللهم فضيحة أسوأ منها!

وهكذا كان المنافقون أول أمرهم أضعف شأنا من نفايات الشرك بالمدينة، ومن شراذم اليهود فيها! هؤلاء اليهود الذين كان المتوقع منهم أن يرحبوا بالإسلام ورسوله ـ كما أسلفنا ـ فإذا لم يرحبوا فليكونوا أبطأ من الوثنيين فى مخاصمته، فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يدعو إلى توحيد الله تعالى، وإصلاح العمل، والاستعداد لحياة أرقى فى الدار الآخرة، والدين القيم الذى جاء به وقر موسى عليه السلام ـ كما عرفنا ـ وأعلى شأنه، ونوه بكتابه، وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه، ويلزموا حدوده، ويتبعوا الرسول النبى الأمى الذين يجدونه مكتوبا عندهم.

ولكن اليهود هم اليهود، صمتوا أولا صمت المستريب، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود!

« فاعف عنهم واصفح » :

والجدل والمماراة من طبائع اليهود التى جبلوا عليها، وقد استعملوا هذا السلاح الرعيب الرهيب فى الكيد للرسالة والرسول، والتهجم على الرسالة والرسول، والسخرية من الرسالة والرسول :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).

وهو خطاب للرسول الحبيب المحبوب ﷺ يصور حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة (٢)، فهم لا يكفون عن محاولة خيانة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانه متواترة، بل كانت هذه هى حالهم طوال إقامتهم مع الرسول فى المدينة.. ثم

---

(١) المائدة: ١٣ .

(٢) فى ظلال القرآن: ٢: ٨٥٩ وما بعدها بتصرف.

فى الجزيرة كلها.. وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ.. على الرغم من أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد الذى آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه!

ولكنهم كانوا دائما ـ كما كانوا على عهد رسول الله ﷺ ـ عقارب وحيات، وثعالب وذئابا، تضمر المكر والخيانة ولا تنى تمكر وتغدر!

إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك، وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة، طغاة بغاة، لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة! أكثرهم كذلك!

كما وصفهم الله سبحانه فى كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التى أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

والتعبير القرآنى الخاص عن واقع حال اليهود مع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى المدينة تعبير ذو ظلال:

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

الفعلة الخائنة !

والنية الخائنة !

والكلمة الخائنة !

والنظرة الخائنة!

يجمل التعبير كل ذلك بحذف الموصوف وإثبات الصفة:

«خائنة»

لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقى ظلالها وحدها على القوم! فهذا هو جوهر جبلتهم! وهذا هو جوهر موقفهم مع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ومع الجماعة المسلمة!

إن هذا القرآن هو دستور هذه الأمة، ومرشدها ورائدها، وحادى طريقها على طول

الطريق.. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله..

ولو ظلت هذه الأمة تستنير بقرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها.. ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها، وحين اتخذت القرآن مهجورا، وحين تحاكمت إلى غيره، وإن كانت ما تزال تتخذ منه نغما يتردد، أصابها ما أصابها !

ولقد كان الوحى يقص عليها ماوقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب، وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هى ميثاقهامع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد.. فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت فى الطريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية، وتركها هكذا ذيلا فى القافلة! حتى تثوب إلى رشدها.، وتؤوب إلى ربها، وتستمسك بعهدها. فتعود لها مكانتها فى القيادة والريادة والشهادة على الناس .. وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة..

ولقد كان توجيه الله لنبيه فى ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية :

﴿ **فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾ .

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان ..

شــر عاقبــة :

ومع هذا الصفح، وذلك الإحسان، تطالعنا سحنة يهود، ويطالعنا تاريخ يهود، ونحن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم(٢)، وجعل منهم القردة والخنازير! إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت!

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة فى مواضع شتى من القرآن الكريم، وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير!

أما قضية عبادتهم للطاغوت فتحتاج إلى بيان هنا،؛أنها لفتة ذات دلالة خاصة فى هذا المقام!

---

(١) المائدة : ٦٠ .

(٢) المرجع السابق: ٩٢٦ ومابعدها بتصرف.

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل عدوان يتجاوز الحق.. والعدوان على سلطان الله عز وجل وألوهيته، هو أشنع العدوان وأشده طغيانا، وأدخله فى معنى الطاغوت لفظا ومعنى..

واليهود لم يعبدوا الأحبار، ولكنهم اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله، فسماهم الله عبادا لهم! وسماهم مشركين!

وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق.. فهم عبدوا السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها.. وهم لم يعبدوها بمعنى الركوع لها والسجود، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع و الطاعة.. وهى عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله!

والله عز وجل يوجه رسوله ﷺ لمجابهة اليهود بهذا التاريخ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ.. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة.. يوجهه ليقول لهم: أن هذا شر عاقبة:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

أى شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين، وما يكيدون لهم ، وما يؤذونهم بسبب إيمانهم، وذلك فى الآية السابقة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (١).

وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه، وحكمه على هؤلاء بالشر والضلال عن سواء السبيل:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

سمات قبيحة :

ويمضى السياق القرآنى فى التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم ـ بعد عرض تاريخهم وجزائهم ـ ويجئ التحذير والتوعية منم بكشف ما يبيتون.. ، ويبرز اليهود كذلك فى الصورة؛ لأن الحديث عن وقائع جارية، ومعظم الشر يجئ من قبل يهود:

---

(١) المائدة : ٥٩

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ۝٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٢ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[١].

إنها عبارات تنشئ صورا متحركة ومشاهد حية.. ومن وراء القرون يملك قارئ هذه الآيات أن يشهد بعين التصور هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن..

يقول الطبرى:[٢] يقول تعالى ذكره: وإذا جاءكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون من اليهود، وقالوا لكم: آمنا: أى صدقنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ، واتبعناه على دينه، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذى يعتقدونه بقلوبهم، ويضمرونه فى صدورهم وهم يبدون كذبا التصديق لكم بألسنتهم، وقد خرجوا به، يقول: وقد خرجوا بالكفر من عندكم، كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكم عن كفرهم وضلالهم، يظنون أن ذلك من فعلهم، يخفى على الله جهلا منهم بالله:

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴾

يقول: والله أعلم بما كانوا عند قولهم لكم بألسنتهم: آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به، يكتمون منهم مما يضمرونه من الكفر بأنفسهم.

يقولها الحق جل شأنه؛ لأنها الحقيقة، ثم لكى يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم، وحفظهم من كيد عدوهم، وإحاطته علما بهذا الكيد الكتوم، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون!

ويمضى السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة من خلال التعبير:

﴿ وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾.

والمسارعة مفاعلة، تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا فى الإثم والعدوان، وأكل الحرام، وهى صورة ترسم للتبشيع والتشنيع والتفظيع، ولكنها تصور حاله من حالات

---

(١) المائدة: ٦١ ـ ٦٣.　　　(٢) تفسير الطبرى: ٦ : ٢٩٦ .

النفوس والجماعات، حين يستشرى فيها الفساد، وتسقط القيم، ويسيطر الشر.. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التى انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر.. إلى الإثم والعدوان.. قويهم وضعيفهم سواء..

والإثم والعدوان فى المجتمعات الهابطة الفاسدة لايقتصران على الأقوياء، بل يرتكبهما كذلك الضعفاء!

فحتى هؤلاء ينساقون فى تيار الإثم!

وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء!

إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا.. ولكن يعتدى بعضهم على بعض.. ويعتدون على حرمات الله.. لأنها هى التى تكون فى المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذى لا حارس له من حاكم ولا محكوم، فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد، والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات!

وكذلك كان مجتمع يهود فى تلك الأيام.. وكذلك أكلهم للحرام الذى هو سمة يهود فى كل آن!

﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾

ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة، وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الدينى.. سكوت هؤلاء وهؤلاء على مسارعة القوم فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت، وعدم نهيهم عن هذا الشر الذين يتسابقون فيه:

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

فهذه السمة.. سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الدينى عما يقع فى المجتمع من إثم وعدوان.. هى سمة المجتمعات التى فسدت وآذنت بالانهيار! وبنو إسرائيل كما وصفهم القرآن:

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[1].

إن سمة المجتمع الفاضل الحى القوى المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهى، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف : الناهين عن المنكر.

وكذا وصف الله الأمة المسلمة بقوله:

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[2]

ووصف بنى إسرائيل ــ كما سبق ــ فقال :

﴿ كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ﴾

فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين.

أما هنا فيجيء باللائمة على الربانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة فى الإثم والعدوان وأكل السحت، الذين لا يقومون بحق مااستحفظوا عليه من كتاب الله سبحانه.

وإنه لصوت النذير.. فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

« وقالت اليهود يد الله مغلولة » :

ويجيء بعد ذلك قول اليهود الغبى اللئيم كنموذج من قولهم الإثم فى أبشع صورة:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

---

(١) المائدة : ٧٩ . (٢) آل عمران: ١١٠. (٣) المائدة: ٦٤ .

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه، وهو البخل، بلفظه المباشر، فاختاروا لفظا أشد وقاحة وكفرا، فقالوا:

﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

الرد عليهــم :

ويجىء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم ، وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم:

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾

وكذلك هم، فهم أبخل خلق الله بحال!

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلاحساب:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

وعطاياه التى لا تتوقف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان.. شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان..

ولكن يهود لاتراها؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم، وبالكنود وبالجحود، وبالبذاءة حتى فى حق الله!

ويبين الحق للرسول الحبيب المحبوب ﷺ ماسيبدو من القوم، وما سيحل بهم، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة، وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم فى القديم والحديث:

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾

فبسبب الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان. لابد أن يشتطوا فى الجانب المقابل، ولابد أن يزيدوا تبجحا ونكرا، وطغيانا وكفرا. فيكون الرسول الحبيب المحبوب ﷺ رحمة للمؤمنين، ووبالا على المنكرين.

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » :

ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادى والتباغض فيما بينهم، ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهبا، ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة:

﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

وما تزال طوائف اليهود متعادية.. وإن بدا فى هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند، وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح!

ولكن ينبغى ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. ففى خلال ألف وأربعمائة عام.. بل من قبل الإسلام.. واليهود فى شحناء، وفى ذل كذلك وتشرد.. ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه.. مهما تقم حولهم الأسناد!

مفتاح الموقف :

ولكن مفتاح الموقف كله فى وجود العصبة المؤمنة التى يتحقق لها وعد الله.. فأين هى العصبة المؤمنة اليوم، التى تتلقى وعد الله ، وتقف ستارا لقدر الله، ويحقق الله بها فى الأرض ما يشاء؟ !

ويوم تفئ الأمة الإسلامية إلى الإسلام: تؤمن به على حقيقته، وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته.. يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله..

و اليهود يعرفون هذا، ومن ثم يسلطون كل مافى جعبتهم من شر وكيد، ويصبون كل مافى أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامى فى كل شبر من الأرض، ويضربون ـ لا بأيديهم ـ ولكن بأيدى عملائهم ـ ضربات وحشية منكرة، لا ترعى فى العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة!

ولكن الله غالب على أمره. ووعد الله لابد أن يتحقق..

« كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » :

إن هذا الشر والفساد الذى تمثله يهود، لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه، فالله لا يحب الفساد فى الأرض، ومالايحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله:

﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

وروى الطبرى عن قتادة: [1] أولئك أعداء الله اليهود، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، فلن تلقى اليهود ببلد إلا وجدتهم من أذل أهله، لقد جاء الإسلام حين جاء وهم تحت أيدى المجوس، أبغض خلقه إليه.. وعن السدى قال: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله..وأطفأ حدهم ونارهم، وقذف فى قلوبهم الرعب.

افتراء على اللــه :

وروى ابن مردويه وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما:[2] لما نزل قوله تعالى:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾[3].

قالت اليهود: يا محمد! افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله:

﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[4].

ويروى الطبرى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال [5]: دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع، فقال أبو بكر رضى الله عنه لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله! إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله ياأبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيا مااستقرض منا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ياعدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ ، وقال

---

(١) تفسير الطبرى :٦ : ٣٠٣ ــ٣٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير:١:٤٣٣ ــ٤٣٤ والقاسمى:٤: ١٠٥٠ .

(٣) البقرة: ٢٤٥.

(٤) آل عمران:١٨١ .

(٥) تفسير الطبرى : ٤: ١٩٤ وتفسير ابن كثير : ١: ٤٣٤ ، وتفسير القاسمى :٤:١٠٥١ ، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢:٢٠٧ ط الحلبى .

يامحمد، انظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: ماحملك على ما صنعت؟ » فقال يارسول الله! إن عدو الله قال قولا عظيما، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبى بكر:

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[٤].

وفى أبى بكر وما بلغه فى ذلك الغضب:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[١].

حقا، إنها سمات يهود.. الذين وجدوا فى أيديهم المال الذى آتاهم الله من فضله، فحسبوا أنهم أغنياء عن الله، ولا حاجة لهم فى جزائه، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التى يضاعفها لمن يبذل فى سبيله، وهو مايسميه تفضلا منه ومنّة إقراضاً له سبحانه، وقالوا ماقالوا فى وقاحة بالغة!

ويعجز القلم عن إعادة ما قالوا!

وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن الوقاحة وسوء الأدب فى حق الله!

وهو تصور شائع ذائع فى كتبهم المحرفة ـ كما أسلفنا ـ ولكن هذه تبلغ مبلغا عظيما من سوء التصوير والتعبير، ومن سوء الأدب معا!

قتلهم الأنبياء:

ومن ثم استحقوا هذا التهديد المتلاحق:

﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾.

لنحاسبهم عليه، فما هو بمتروك ولا منسى ولا مهمل!

وإلى جانبه تسجيل الآثام السابقة:

﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾.

---

(١) آل عمران: ١٨٦

وقد حفظ تاريخهم سلسلة أثيمة فى قتل الأنبياء، آخرها محاولتهم قتل المسيح عليه السلام.. وهم يزعمون أنهم قتلوه، متباهين بهذا الجرم العظيم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

ومن ثم كان الجزاء:

﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾

والنص على الحريق هنا مقصود، لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه، ولتجسيم مشهده بهوله وتأججه وضرامه، جزاء وفاقا ، على القول الشنيع الفظيع:

﴿ إن الله فقير ﴾

﴿يد الله مغلولة ﴾

وجزاء على الفعل الفظيع الشنيع:

﴿ وقتلهم الأنبياء ﴾

ومن ثم كان ذلك العقاب :

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾

جزاءا وفاقا، لاظلم فيه، ولا قسوة:

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾

والتعبير بالعبيد هنا إبراز لحقيقة وصفهم، وهم عبيد من العبيد، وهو يزيد فى شناعة الجرم وفظاعة سوء الأدب!

تحويل القبلة وسفاهة اليهود :

ومن القضايا التى أكثروا فيها الجدل، ابتغاء الفتنة، وابتغاء الطعن فى الرسالة والرسول ﷺ .. تحويل القبلة.

---

(١) النساء : ١٥٥ ـ ١٥٨ .

يروى الشيخان عن البراء بن عازب رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر ـ أو سبعة عشر ـ شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾[1].

فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس، وهم يهود:

﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

فصلى« مع النبى ﷺ رجل، ثم خرج بعدما صلى، فمر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة.[3]

لقد انطلقت أبواق يهود، وقد عز عليهم أن يتحول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ والجماعة المسلمة، عن قبلتهم!

انطلقت أبواق يهود تلقى فى الصفوف بذور البغض والحقد!

وقد أعلم الله نبيه أن هؤلاء السفهاء سيقومون بهذة الحملة الضارية:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4].

الحكمة من تحويل القبلـة :

لقد كان تحويل القبلة لحكمة أشار إليها قول الحق جل شأنه:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم، ويعدونه من مجدهم، القومى[6].

---

(١) البقرة:١٤٤. (٢) البقرة : ١٤٢ .

(٣) البخارى: ٨ ـ الصلاة: (٣٩٩)، واللفظ له، ومسلم : ٥ ـ المساجد ١١ (٥٢٥) .

(٤) البقرة: ١٤٢ . (٥) البقرة : ١٤٣. (٦) فى ظلال القرآن : ١ : ١٢٦ بتصرف .

ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامى المرتبط بالحق مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به فى الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها فى خفايا المشاعر وحنايا الضمير أى تلبس من قريب أو من بعيد..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التى أراد الله، وفى الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون هذا الموضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهى الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام، ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هى حقيقة الإسلام.. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصا لله، وليكون تراثا للأمة المسلمة..ودعوة إبراهيم أن يبعث الله بنبيه ورسولا منهم بالإسلام ، الذى كان عليه هو وبنوه وحفدته..

ولقد كان الحديث عن المسجد الحرام: بنائه وعمارته، وما أحاط بهما من ملابسات، والجدل مع أهل الكتاب ، والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وعهده ووصيته فى الآيات السابقة التى عرضنا لها.. كان هذا الحديث خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين.. وكان الاتجاه الطبيعى المنطقى مع وراثة المسلمين للدين. فهو الاتجاه الحسى المتساوق مع الاتجاه الشعورى، الذى ينشئه ذلك التاريخ.

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين.، وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده، كما عهد به يعقوب، وهو إسرائيل، ولقد علم إبراهيم أن ورثة عهد الله وفضله لا تكون للظالمين..

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام..فهو تراث لهما، يرثه من يرثون عهد الله إليهما..

والأمة الإسلامية هى الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما، فطبيعى إذن ومنطقى كذلك أن ترث بيت الله فى مكة، وأن تتخذ منه قبلة..

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى الذى يتجه إليه أهل الكتاب، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة ـ كما سبق ـ فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة، وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم، وهو الإسلام فيشاركوا في هذه الوراثة..

الآن يجىء تحويل القبلة فى أوانه.. يجىء تحويل القبلة إلى أول بيت وضع للناس، الذى بناه إبراهيم لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة الحسية والشعورية..

وراثة الدين..

ووراثة القبلة..

ووراثة الفضل من الله..

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة:

الاختصاص والتميز فى التصور والاعتقاد..

والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة..

وهذه كتلك لابد من التميز فيها والاختصاص ..

وقد يكون الأمر واضحا فيما يختص بالتصور والاعتقاد، ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة..

هنا تعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة.

إن الذى ينظر إلى هذه الأشكال مجردة عن ملابساتها، ومجردة كذلك عن طبيعة النفس البشرية وتأثراتها.. ربما يبدو له أن فى الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيئا من التعصب والضيق، أو شيئا من التعبد للشكليات!

ولكن نظرة أرحب من هذه النظرة، وإدراكا أعمق لطبيعة الفطرة، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار..

إن فى النفس الإنسانية ميلا فطريا ناشئا من تكون الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح مغيب إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة، فهذه المشاعر المضمرة لا تهدأ أولا تستقر حتى تتخذ لها شكلا ظاهرا تدركه الحواس، وبذلك يتم التعبير عنها.. يتم

فى الحس كما تم فى النفس، فتهدأ حينئذ وتستريح، وتفرغ الشحنة الشعورية تفريغا كاملا، وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن، وتجد تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل، وجنوحها إلى الظواهر والأشكال فى ذات الأوان.

وعلى هذا الأساس الفطرى أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها.. فهى لا تؤدى بمجرد النية، ولا بمجرد التوجه الروحى. ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلا ظاهرا: قياما واتجاها إلى القبلة، وتكبيرا وقراءة وركوعا وسجودا فى الصلاة. وإحراما من مكان معين، ولباسا معينا، وحركة وسعيا ، ودعاء وتلبية، ونحرا وحلقا فى الحج، ونية وامتناعاً عن الطعام والشراب والمباشرة فى الصوم..

وهكذا فى كل عبادة حركة، وفى كل حركة عبادة، ليؤلف بين ظاهر النفس وباطنها، وينسق بين طاقاتها، ويستجيب للفطرة جملة بطريقة تتفق مع تصوره الخاص.

ولقد علم الله أن الرغبة الفطرية فى اتخاذ أشكال ظاهرة للقوى المضمرة هى التى حادت بالمنحرفين عن الطريق السليم.. فجعلت جماعة من الناس ترمز للقوة الكبرى برموز محسوسة مجسمة من حجر وشجر، ومن نجوم وشمس وقمر، ومن حيوان وطير وشىء.. حين أعوزهم أن يجدوا متصرفا منسقا للتعبير الظاهر عن القوى الخفية.. فجاء الإسلام يلبى دواعى الفطرة بتلك الأشكال المعينة لشعائر العبادة.. فيتوجه الفرد إلى قبلة حين يتوجه إلى الله بكليته.. بقلبه وحواسه وجوارحه.. فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان فى التوجه إلى الله عز وجل..

ولم يكن بد من تمييز المكان الذى يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه، كى يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه.. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد، كما أنه بدوره ينشئ شعورا بالامتياز والتفرد.

ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم، التى هى تعبير عن مشاعر باطنة، كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء.

ولم يكن هذا تعصبا ولا تمسكا بمجرد شكليات، وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة، وهذه البواعث هى التى تفرق قوما عن قوم، ، وعقلية عن عقلية، وتصورا عن تصور، وضميرا عن ضمير، وخلقا عن خلق، واتجاها فى الحياة كلها عن اتجاه.

والله عز وجل يريد لهذه الأمة ـ كما عرفنا ـ أن تكون الوارثة للعقيدة، المستخلفة فى الأرض تحت راية العقيدة، ويريد لها أن تخلص له، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ورغباتها الدفينة، وأن تتعرى من كل رداء لبسته فى الجاهلية، ومن كل شعار اتخذته، وأن ينفرد فى حسها شعار الإسلام وحده، لا يلتبس به شعار آخر، وأن يتوحد المصدر الذى تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر.

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام ـ كما أسلفنا ـ قد تلبست به فى نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة الحقة، وكان البيت يعتبر فى ذلك الحين بيت العرب.. لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى، فقد صرف الله للمسلمين عنه فترة، ووجههم إلى بيت المقدس، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولا، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول الحبيب المحبوب ﷺ ثانيا، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة.

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة..

إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها فى القلب شريكا، ولا تقبل شعارا غير شعارها المفرد الصريح، إنها لا تقبل راسبا من رواسب الجاهلية فى أية صورة من الصور. جل أم صغر.

وهذا هو إيحاء النص القرآنى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾

والله سبحانه يعلم كل ما يكون قبل أن يكون.. ولكنه عز وجل يريد أن يظهر المكنون من الناس، حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به، فهو لرحمته بهم لا يحاسبهم إلا على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم..

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس علقة.. أمر شاق، ومحاولة عسيرة.. إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ

الاستيلاء المطلق، وإلا أن يعين الله هذا القلب فى محاولته فيصله به ويهديه إليه:

﴿ **وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ .

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر فى أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات، وأن تنفض عنها تلك الرواسب، وأن تتجرد لله تسمع، حيثما وجهها الله عز وجل تتجه وحيثما قادها رسول الله ﷺ تقاد.

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم.. إنهم ليسوا على ضلال، وإن صلاتهم لم تضع:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

إنه يعرف طاقاتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقاتهم، وإنه يهدى المؤمنين، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان، حين تصدق منهم النية، وتخلص الطوية وتصح العزيمة.. وإذا كان البلاء مظهرا لحكمته، فاجتياز البلاء فضل ورحمته:

﴿ **إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ .

بهذا يكسب فى قلوب المسلمين الطمأنينة ، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين.

بعد ذلك يعلن استجابة الله لرسوله ﷺ فى أمر القبلة، ويعلن عن هذه القبلة مع تحذير المسلمين من فتنة يهود، وكشف العوامل الحقيقية الكامنة وراء حملاتهم ودسائسهم.. فى صورة تكشف عن مدى الجهد الذى كان يبذل لإعداد تلك الجماعة المسلمة، ووقايتها من البلبلة والفتنة:

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١).

ويطالعنا هذا التعبير المصور لحالة النبى ﷺ :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

وهو تعبير يصور تلك الرغبة القوية فى أن يوجهه ربه إلى قبلة غير القبلة التى كان عليها، بعدما كثر لجاج اليهود وحجاجهم، ووجدوا فى اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبة والتلبيس... حيث كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يقلب وجهه فى السماء، ولا يصرح بدعاء، تأدبا مع ربه، وتحرجا أن يقترح عليه شيئا، أو أن يقدم بين يديه شيئا..

ولقد أجابه ربه إلى مايرضيه..

والتعبير عن هذه الاستجابة يصور تلك الصلة الرحيمة الحانية الودود:

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾

ثم يعين له هذه القبلة التى علم سبحانه أنه يرضاها:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾

قبلة له ولأمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

من كل اتجاه، فى أنحاء الأرض جميعا..

قبلة واحدة، تجمع هذه الأمة، وتوحد بينها على اختلاف مواطنها، واختلاف مواقعها

(١) البقرة: ١٤٤ ـ ١٥٠.

من هذه القبلة، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها..

قبلة واحده، تتجه إليها الأمة الواحدة فى مشارق الأرض ومغاربها.. فتحس أنها جسم واحد، وكيان واحد تتجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهج واحد. منهج ينبثق من كونها جميعا تعبد إلها واحدا، وتؤمن برسول واحد، وتتجه إلى قبلة واحدة.

وهكذا وحد الله هذه الأمة.

وحدها فى إلهها ورسولها ودينها وقبلتها.

وحدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات، ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من هذه القواعد كلها، ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها، ولو تفرقت فى مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها..

إنها الوحدة التى تليق ببنى الإنسان. فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، وقبلة العبادة، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلأ والسياج والحظيرة!

ثم.. ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة؟

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس، رفع قواعده إبراهيم.. جد هذه الأمة الوارثة.. وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مرية فيه..

ولكنهم مع هذا سيفعلون غيرما يوحيه هذا العلم الذى يعلمونه. فلا على المسلمين منهم، فالله جل شأنه هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم:

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

إنهم لن يقتنعوا بدليل؛ لان الذى ينقصهم ليس هو الدليل، وإنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾

فهم فى عناد يقوده الهوى، ويحدوه الغرض!

ويظن كثيرون أن الذى يصد هؤلاء عن الإسلام أنهم لا يعرفونه، أو لأنه لم يقدم إليهم فى صورة مقنعة.. وهذا وهم.. إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه! يعرفونه فهم

يخشونه على مصالحهم، وعلى سلطانهم، ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لا يفتر، بشتى الطرق وشتى الوسائل . عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجه، ويحاربونه من وراء ستار، ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار .. وهم دائما عند قول الله لنبيه الكريم:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾

وفى مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام، ومنهجه الذى تشير هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وموقفه:

﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول الحبيب المحبوب ﷺ تجاه هذا الأمر . وفيه إيحاء قوى للجماعة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها التى اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه، ولن ترفع راية غير رايتها التى تنسبها إلى الحق، ولن تتبع منهجا إلا المنهج الإلهى الذى تشير إليه هذه القبلة المختارة ..

هذا شأنها مادامت مسلمة ..

ويكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض، فهم ليسوا على وفاق لأن الأهواء تفرقهم :

﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾

والعداء بين اليهود والنصارى .. والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة .. والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء ... وهذا لايحتاج إلى بيان ..

وما كان للنبى ﷺ ، وهذا شأنه، وهذا شأن أهل الكتاب، وقد علم الحق فى الأمر، أن يتبع أهواءهم بعدما جاءه من العلم :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ونقف لحظة أمام هذا القول الصارم، فى هذا الخطاب الإلهى من الحق تبارك وتعالى إلى نبيه الكريم الذى أجابه من قبل إلى مايرضيه فى هذا المقام بذلك القول الرفيق الودود.. نقف لنبصر أن الأمر هنا يتعلق بالاستقامه على هدى الله وتوجيهه، ويتعلق بقاعدة التميز

والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم وذلك الجزم، وبهذه المواجهة وذلك التحذير:

﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

إن الطريق واضح، والصراط مستقيم .. فإما العلم الذى جاء من عند الله، وإما الهوى فى كل ماعداه .

وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله .

وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب .

وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد .

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك غمرة الدسائس اليهودية، وحملة التضليل الماكرة، التى تستدعى هذه الشدة فى التحذير، وهذا الجزم فى التعبير ..

وتمضى الآيات تقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق فى هذا الشأن وفى غيره هو ماجاء به القرآن الكريم، وما أمر به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ولكنهم يكتمون الحق الذى يعلمونه، للهوى الذى يضمرونه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة .. وإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبى ﷺ ومنه هذا الذى جاء به فى شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الذى يعلمونه علم اليقين .. فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب .. وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئا فى أمر دينهم، الذى يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين ﷺ .

وهنا يوجه الخطاب إلى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب:

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

ورسول الله ﷺ ما امترى يوما ولا شك، ولكن توجيه الخطاب هكذا يحمل إيحاءً

قويا إلى من وراءه من المسلمين خشية أن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وأحابيلهم .

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير، ونحن فى بلاهة منقطعة النظير، نروح ونستفتى المستشرقين من اليهود والنصارى والشيوعيين وتلاميذهم المتغربين من أبناء جلدتنا فى أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول فى تراثنا، ونسمع لما يدسونه من شكوك فى دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا وسيرته، وسيرة سلفنا، ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يأخذون عنهم علوم الإسلام، حيث الدراسات التخصصية فى القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه الإسلامى، والعقيدة الإسلامية، وما إلى ذلك من التخصصات التى يرأس الأقسام العلمية فيها عندهم أحبار يهود ويشاركهم قساوسة نصارى، ومن ثم يتخرج هؤلاء الطلاب فى تلك الجامعات، ويعودون إلينا مدخولى العقل والضمير !

أولئك هم السـفهاء :

وحسبنا فى هذا المقام الذى عرفنا معالمه أن ندرك تلك الملابسات التى أحاطت بحادث تحويل القبلة، والدسائس التى حاولها اليهود بمناسبته، وأن ندرك أن القرآن الكريم أخذ الطريق على تلك الأقاويل والتساؤلات التى سيطلقها هؤلاء السفاء:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾

وفى الوقت ذاته نلمح وراء تفصيل القول فى تحويل القبلة مايشى بضخامة حملة الأضاليل والأباطيل، والعداء اليهودى السافر الكالح الفاضح !

وأدرك اليهود عملياً أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ليس مجرد زعيم يحترف السياسة، ويعتمد كل أسلوب لتحقيق أهدافه، وإنما هو صاحب رسالة عالمية إزاء العالم كله، صاحب رسالة عظيمة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الإقليمية لشبه الجزيرة العربية .. باتجاه الإنسان فى كل مكان وزمان، وازداد الأمر وضوحا عندما توالت الآيات بالدعوة إلى الدخول فى الدين القيم، إن أراد أهل الكتاب الحفاظ على جوهر دعوة أنبيائهم الذين رفعوا راية التوحيد الخالص وأسلموا لله رب العالمين ..

ومن ثم تتضح حقيقة الصلة بين موكب الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته .. وهى عهد الله عليهم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾(١).

ومن ثم يتعين على أهل الكتاب أن يؤمنوا بخاتم النبيين ﷺ وينصروه ، ولكنهم لا يوفون بعهد الله معهم ومع رسلهم الأولين !

وفى ظلال هذا العهد السارى يقرر الحق جل شأنه أن الذى يبتغى غير الإسلام يخرج فى الحقيقة على نظام الكون كله كما أراده الله:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

وهكذا يبدو هؤلاء الذين يخرجون عن إسلام أمرهم لخالقهم، والطاعة والاتباع لمنهج الله فى خضوع واستسلام.. يبدو هؤلاء شذاذا خارجين على نظام الوجود الكبير!

كما يبدو هؤلاء شذاذا خارجين على دين أنبيائهم:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

هذه هى ملة إبراهيم عليه السلام..

الإسلام الخالص الصريح..

لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه، سفيه عليها، مستهتر بها (٣).

هذه هى ملة إبراهيم. ووصيته فى ذريته، ووصية يعقوب، وهو إسرائيل الذى ينتسبون

---

(١) آل عمران : ٨١ ـ ٨٣. (٢) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٤. (٣) فى ظلال القرآن: ١: ١١٦ بتصرف.

إليه. ثم لا يلبون وصيته، تلك التى كانت شغله الشاغل، الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته!

عالمية التوحيد وانغلاق اليهود :

وظهر لليهود، يوما بعد يوم، المصدر الأساسى للخطر الذى تشكله دعوة الحق إزاء انحرافات اليهودية وضلالاتها؛ لأن دعوة الحق تقوم على التوحيد الخالص ، غير الذى يؤمن به اليهود، على أساس قومى استعلائى مغلق ، من أن الله عندهم ـ كما أسلفنا ـ هو « يهوه » وهو الذى اختاره لنفسه، من دون الناس، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس !

ومن أجل ذلك كذبوا أنبياءهم، وحاربوا المسيح عليه السلام، وسعَوْا إلى قتله!

فإذا ما جاءهم خاتم النبيين ﷺ فدعا الناس جميعا إلى الإيمان بالله عز وجل بغض النظر عن أجناسهم، فإنه بذلك يزيل عن بنى إسرائيل هذه العصبية التى كانوا يتعاظمون بها على الكافرين!

وإذا فلا تهاون بينهم وبين الرسول الحبيب المحبوب ﷺ (1). الذى يدعو إلى تحطيم تلك القاعدة المزيفة لدى اليهود!

ومن هنا قامت المجادلات، ونشأت العداوات، وظهرت الخصومات، التى ما لبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدى والمعاندة، ووصل بهم الحقد ـ كما عرفنا ـ إلى تفضيل الأصنام على التوحيد !

ورغم أن ولفنسون أكد على خطورة مبدأ التوحيد الإسلامى، وعالميته إزاء العقلية اليهودية، التى لا تلين أمام شىء يزحزحها عن عقيدتها، وتأبى أن تعترف بنبى من غير بنى إسرائيل! إلا أنه وقع فى خطأ القول بأن الرسول ﷺ لو لم يكلف اليهود الاعتراف برسالته، ولو وقفت تعاليمه عند حد محاربة الوثنية فحسب، لما وقع نزال بينهم وبين المسلمين ، ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم، حتى يحطم الأصنام، ويقضى على العقائد الوثنية!

ويمضى ولفنسون إلى القول بأن هذه المسألة يجب ألا تغرب عن الأذهان؛ لأنها

---

(1) مكة والمدينة : ٤١٢ وما بعدها بتصرف .

أساس ما حدث بين اليهود وبين الرسول من خلاف ونزاع، ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف، أو لكان في الإمكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك! ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية ، في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود،مع أنه مما لا شك فيه أنه إذا أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع! (١).

وفاتت ولفنسون حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية، تلك هي أن مسيرة الدعوة الإسلامية المتفتحة على العالم، واصطفاء خاتم النبيين من غير بني إسرائيل، وقيام الدولة الإسلامية في قلب المنطقة التي تتحرك فيها مصالح اليهود وأعمالهم المختلفة .. يشكل خطرا على اليهودية التي كانت موجودة، والتي أصابها التغيير والتحريف ، والتزييف والتخريف ؛ لأن نجاح الإسلام كفيل بحصر اليهودية المزيفة وعزلتها، وكشف أصحابها أمام العالم، وهنا يكمن الخطر المحدق بهم وبكل من على شاكلتهم.. الأمر الذي دفعهم بعد وقت قصير من إدراكهم أبعاد هذا الخطر، إلى أن يقفوا إلى جانب الوثنية، ويمتدحوا أصنامها ـ كما عرفنا ـ بمواجهة التوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام !

ومن ثم فإن ولفنسون يناقض نفسه، عندما يشير إلى انغلاق العقلية اليهودية من جهة سكوتها، بل تعاونها ـ لو لم تدع إلى الإسلام ـ مع هذا الدين القيم، الذي جاء لكي يبطل الباطل، ويكشف المزاعم الدينية التي مارسها اليهود طويلا، ولكي ينفتح على الإنسان والعالم، ويقضي في طريقه على أسطورة شعب الله المختار، وما يتمخض عنها لصالح اليهود من مظالم لا يحصيها عد!

هذه هي الحقيقة، والنقطة الجوهرية في البحث عن أسباب الخلاف، والتي إذا ما أهملت - دون غيرها ـ فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع، وسيؤكد سياق الأحداث ذلك.

ومن هذا الخطأ يجد ولفنسون وعدد من المستشرقين أنفسهم مسوقين إلى خطأ آخر، هو أنه ما دام القتال قد نشب بين المسلمين واليهود في أعقاب بدر ـ كما سيأتي ـ فإن معنى هذا أن اليهود كان عليهم أن يندمجوا في الدين الجديد ـ كما يقولون ـ أو أن يجابهوا بحرب دموية، حتى ينتهوا أو ينتقلوا إلى مكان بعيد.. وأنه ما دام قد وقع قتال بين

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب : ١٢٢ ـ ١٢٣ بتصرف.

الطرفين، فإن معنى هذا ـ كما يزعمون ـ أن المهاجرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود ؛ لأن حالتهم كانت سيئة جدا، إذ لم يكن لهم مال، ولا مزارع، ولا منازل، بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج (١).

وفات هؤلاء أن طبيعة التعارض العقائدى بين الدين القيم الذى يقوم على التوحيد الخالص والانفتاح الكامل ، وبين اليهودية التى تقوم على الانغلاق الكامل ، والتبديل والتحريف، والتزييف والتخريف ـ كما أسلفنا ـ كان لا بد وأن يؤول ذلك إلى صراع حاسم، من أجل إحقاق الحق، وإبطال الباطل !

حقا، إنها سمـات يهـود!

وهل بالإمكان ـ فوق هذا كله ـ أن يتناسى المؤرخ الجاد ما قام به اليهود من جدل وافتراء، ودس ووقيعة بين المسلمين، مع المنافقين، للقضاء على المسلمين داخل المدينة، وتآمر مع المشركين ـ كما سيأتى ـ هل كان بالإمكان أن يتناسى المؤرخ الجاد ذلك أو بعضه؟!

ومع ذلك فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يقاتل اليهود فى هذه المرحلة، امتثالا لأمر الله فى العفو والصفح ـ كما أسلفنا ـ وتحمل سفه اليهود، وصبر على أذاهم ومكرهم وخداعهم، وضلالهم وكيدهم!

واكتفى بمجادلتهم بالتى هى أحسن، وتفنيد ضلالاتهم، ودحض شبهاتهم، ورد مفترياتهم.

---

(١) المرجع السابق : ١٢٦ـ ١٢٧ بتصرف.

أهم المراجع

١ ـ أحكام القرآن، للجصاص، ط البهية المصرية ١٣٤٧هـ .

٢ ـ الأدب المفرد، للبخارى، ط السلفية بالقاهرة ١٣٧٥ هـ .

٣ ـ أعلام النبوة، للماوردى، ط شمس الحرية، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٤ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، المعارف، بيروت، ط ثانية ١٩٧٧م.

٥ ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتورمحمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٦ ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

٧ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير ، البابى الحلبى.

٨ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٩ ـ تفسير الطبرى ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط دار المعارف، القاهرة.

١٠ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١١ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

١٢ ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، ط الاستقامة ١٣٦٥ هـ .

١٣ ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٤ ـ تهذيب سيرة ابن هشام، للأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

١٥ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية، ط المجد التجارية.

١٦ ـ دراسة فى السيرة، للدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة، دار النفائس ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٧ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ط الإسلامية، طهران ١٣٧٧هـ.

١٨ ـ الرسالة، للشافعى، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط مصطفى الحلبي ١٣٥٨هـ.

١٩ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، المنار الإسلامية، ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٠ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر العربى.

٢١ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٢ ـ سنن البيهقى (السنن الكبرى) للبيهقى، ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٢٥٣هـ.

٢٣ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ وط الهند، وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٤ ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية.

٢٥ ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢٦ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٧ ـ السيرة النبوية: ابن كثير: ت١ : ١٨٣ ـ ١٨٤ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة ١٣٩٦هـ.

٢٨ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٩ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٣٠ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣١ ـ عمدة التفسير، لابن كثير، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط دار المعارف.

٣٢ ـ عيون الأثر في فنون المغازى والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، لابن عبد الهادي، دار المعرفة بيروت .

٣٣ ـ فتح البارى: شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض .

٣٤ ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٣٥ ـ مجموعة الوثائق للعهد النبوى والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، دار الإرشاد، بيروت، ط ثالثة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

٣٦ ـ محمد رسول الله ﷺ ، للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم دمشق، ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٣٧ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى، ط أولى حيدر آباد .

٣٨ ـ مسند أحمد، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندسى، ط الميمنية بمصر .

٣٩ ـ المسند ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٤٠ ـ مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، ط دار الفكر العربى .

٤١ ـ منهج السنة فى الزواج، للدكتور محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ط أولى ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م .

٤٢ ـ الموطأ، لمالك، تصحيح وترقيم وتعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، عيسى البابى الحلبى ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .

وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه .

الفهـرس

الموضـوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

* * *

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN